

بجته التأليف والترجمة والنشر

انذير مجيد

السَّمْفُونِيَّةُ الْيُفَيَّةُ

ترجمة
حسن صادق

إهداء 2005

الأستاذ الدكتور / أحمد حمدي محمود
القاهرة

بجته التأليف والترجمة والنشر

انذير مجيد

السَّمْفُونِيَّةُ الْيُفَيَّةُ

ترجمة
حسن صادق

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

نحو من مقدمة

أندريه جيد مؤلف قصة « السمفونية الرّيفية » كاتب فرنسى معاصر ، ولد فى عام ١٨٦٩ ؛ فهو الآن فى التاسعة والستين من عمره . وقد ظهرت عليه مخايل النبوغ منذ كان يطلب العلم فى معاهد الدراسة الثانوية ، واكتسب إعجاب أساتذته بمقدرته الفائقة فى ميدان الأدب والبيان .

ولما نشر كتابه الأول « مذكرات أندريه والتر » فى سنة ١٨٩١ ، سطع نجمه فى سماء الأدب ، وذهب له به صيت وذكر ، ثم أخرج من بعد ذلك كثيراً من الكتب القيّمة وأذاع فى امهات الصحف والمجلات أجمل القصص وأروع المقالات فى شتى الموضوعات ، وما يزال جمّ النشاط ، خصب الإنتاج فى عمق وطرافة . ويعتبر اليوم من أكبر كتّاب فرنسا الأحياء ، ومن أفواهم أثرأ فى توجيه الشباب المثقف ، وأعظمهم توفيقاً فى الكشف لهذا الشباب عما يطلق عليه « الضمير العقلى أو الثقافى » .

نظم قليلاً من الشعر فى صدر شبابه ، ثم صدف عنه وشيكا ،

ومال إلى المذهب الرمزي ، أو على الأقل لمسه وحام حوله ، ولكنه لم يلبث أن أعرض عنه لسببين رئيسيين : الأول تشاؤم هذا المذهب واحتقاره للحياة الذي يتجلى في شكل محاربة الواقع ، والآخر كما يزعم أنه لم يجد لأصحاب هذا المذهب أية فكرة صحيحة أو جدارة فلسفية تستلقت النظر أو تستدر الإعجاب . وهو من أجل هذا تعشق الحياة الواقعية ، وجعل نصب عينيه غرضاً واحداً يصبو إليه وهو أن يكون كاتباً قصصياً .

ومع نفوره من التشاؤم — وهذا بعض ما في خلقه من التناقض — فإنه يحب « شوبنهاور » فيلسوف التشاؤم ، ويأخذ على الرمزيين ، وجلهم شعراء ، أنهم يفضلون عليه الفيلسوف « هيغل » .

ولكن سر إعراض « جيد » عن الرمزيين وحملته عليهم يكشف عن نفسه في المجلد الثاني من كتابه « لو كانت البذرة لا تموت ... » ، إذ يعلن أن النثر خير من الشعر وأفضل .

وعلى الرغم من هذا الإعلان فإن أجمل كتب « جيد » — وهذا ضرب آخر من التناقض — عبارة عن قصص صغيرة فلسفية أو رمزية أو شعر منشور . أما القصة الطويلة الخالصة فهي فيما يظهر خارجة عن نطاق استعدادة الحقيقي .

والمطلع على ما يكتب « جيد » يجد أن لهذا الكاتب الفذ
فكراً قلقاً أو على الراجح شديد التشوف ، مولعاً بحب الاستطلاع ،
يذهب في السخرية حين تحلوه إلى حد الغرابة . وهو مصور
صناع للحالات الأليمة الموجهة ، وشاعر بالحساسية المرفهة ،
ويأدركه لجمال الأمكنة والأجواء ، ولكنه شاعر مزود بملكة
التحليل البارع الدقيق . وفضلاً عن ذلك فإنه ناقد من الطراز الأول ،
يحتفظ في أنواع جرأته الكتابية ببعض الأواصر التي تربطه بخير
التقليدات الفرنسية الماثورة .

ومن مميزات « جيد » أنه غامض مستبهم في كثير مما
يكتب ، ولشموه بهذا يقول « إن الذين سيفهموني لم يولدوا
بعد » . ويؤكد في كثير من مصنفاته أنه لا يكتب إلا للأجيال
القادمة . وقد يطيب له في بعض الأحيان أن يقول إن كل تأكيد
حتى ولو صدر عنه ، ينشئ في نفسه على الفور الجواب الذي ينكره ،
وهذا يدل على القلق والتشوف كما ذكرنا . وفي الحق إن الفكر
الناقد ينبغي أن يمدد وجهات النظر ويزن كل شيء بميزان دقيق ،
ولكنه يستطيع على الأقل أن يصل في المسائل الواقعية إلى رأى
جدير بالاعتبار إذا لم يكن مقيداً ببعض الضعف في الخلق أو بترسخ
وخور أو بخوف من التبعة .

وقد لوحظ في مواضع كثيرة أن « جيد » تملكه هذه الرغبة في الحرص والمداواة ، ويستولى عليه هذا الخوف من احتمال التبعة . ومع هذا فهو في بعض الأحيان ، وفي موضوع شاذ بعينه ، يذهب في الصراحة إلى أبعد غاية . والمعروف عنه أنه لا يكتب للظروف ، إذ يعتقد أن إخضاع الفكر لها خطيئة كبرى لا تقبل الصفح والمغفرة ، ومن أجل هذا يحب من الرجال ما يسميهم هو بالعظماء أو الرجال الحقيقيين أمثال نيتشه الألماني ودستوفسكي الروسي ، لأنهم أحرار لا يقيدهم خوف أو شفقة أو حياء أو حقد أو رغبة في اكتساب احترام الغير .

وبمناسبة الصراحة تحضرني قولة « روسو » المشهورة التي استهل بها اعترافاته « إنني أخطئ مشروعاً ليس له نظير قط ، ولن يكون له مقلد أبداً » ، وأجد أن الفيلسوف العظيم أخطأ التقدير ، فقد تحداه « جيد » وجرواً على أن يقص تاريخ حياته تفصيلاً في صراحة هي من القحة بحيث يحمل بالنشء أن يتجنب قراءتها .

وفي حياة هذا الكاتب الخاصة شذوذ عيس العلاقة الجنسية ورأيه فيها يصريح به في كثير من كتبه ، ولست أدري أية حاجة تدعو الإنسان إلى نشر الأهواء التي لا يمكن الدفاع عنها وتبريرها ؟ وما يدعو إلى العجب أنه يؤكد نفوره الشديد من كل ما هو شاذ

يخالف الأوضاع المألوفة أو يحمل سمة المرض ، ويهني نفسه بأنه وجد « الطريق الطبيعي » وهو غير طريق كثرة الناس الغالبة ، لأنه يفصل الحب عن اللذة ويرى أن مزجهما خطأ لا مسوغ له . ومن عجيب أمره أن تريته الدينية البروتستانتية المشددة تبدو بطريقة غير مباشرة في احتقاره للجسد الذي يستغله ويسرف في إنهاكه كأنما هو ينهك شيئاً دينياً نكراً .

وشذوذه هذا وتطرّفه في بعض الآراء السياسية حرماه من دخول الأكاديمية الفرنسية واحتلال المكان اللائق به بين الأربعين الخالدين . وما يزال الناس يذكرّون كيف أنه مدح منذ أعوام النظام البلشفي وأثنى عليه الثناء كله ، ثم انقلب مدحه ذماً قاسياً صريحاً عقب زيارته لروسيا أخيراً .

وفضلاً عن نبوغ « جيد » في البيان الفرنسي ، فإنه يجيد معرفة اللغات الألمانية والإنجليزية والإيطالية واللاتينية واليونانية ، ويستوعب آداب هذه اللغات جميعاً .

وأدب هذا الكاتب خفي ومحدود ، لأنه يخرج في بعض الأحيان كتباً لا تحمل اسمه ولا يطبع منها إلا عدداً صغيراً ، فكانه يتجنب الشهرة على النقيض من الكتاب الآخرين ، ويخيل إلى أنه يكتب لنفسه أو لمائة من القراء على أكثر تقدير كما كان يفعل

« مستندال » ، والفن عنده ليس غاية ، وأعماله الأدبية ليست في نظره ككائن حي ينبغى بمجرد انفصاله عنه أن تكون له حياة خاصة وأن يدوم خلال دورة الزمن .

أما ذهنه فذاتى محض ، ومن أجل هذا نجد أن كتبه ليست إلا مسارات واعترافات ، عبر فيها بدافع لون من ألوان الحاجة الشخصية عن لحظات من تفكيره ، ثم لم يعد لها قيمة عنده أكثر من قيمة الأوراق المهملة المصفرة أو الأزهار الجافة الذابلة . وبرغم هذا كله بلغ ذروة المجد وغاية الشهرة .

وأما ميدانه الأدبي الذى يكلف به فهو الحالات الخاصة والشاذة والمسائل القرية كما سيتبين القارئ من سمفونيته الريفية ، والآفاق التى لم تستكشف الفنية بالصعاب وبالأخطار الجديدة ، ومثله فى ذلك مثل بلزاك ودستوفسكى .

وقد أجمع نقاد الأدب على أن « السمفونية الريفية » من أروع ما كتب « جيد » ومن أكثر الأعمال الأدبية قرباً من الكمال الفنى الشائق للملم ، ولا عيب فيها سوى أنها قصيرة لا تطيل أجل اللذة العقلية والنفسية التى تبعثها فى شخص قارئها .

الكراية الأولى

١٠ فبراير ١٨٩٠ .

تراكت الثلوج التي لم تقتر عن السقوط منذ ثلاثة أيام في
الطرق وعوقت السير فيها ، فلم أستطع الذهاب إلى (ر) التي
اعتدت أن أقيم فيها شعائر المذهب البروتستانتي مرتين في كل
شهر مدى خمسة عشر عاماً بغير انقطاع . ولم يجتمع في هذا الصباح من
المؤمنين الأتقياء إلا عدد يبلغ الثلاثين في يعة « لبريشين » الصغيرة .
سأتنفع بهذا الفراغ الذي أعد لي أسبابه احتباسي الإرغالي
الذي يشبه الاحتجاز في الدير ، لأعود بالذاكرة إلى غضون الماضي
وأروى كيف بلغت بي الحال إلى أن أشغل نفسي « بچرتروود »
وأجعل جهد عنايتي وفقاً على شأنها .

وقد اعتزمت أن أسجل هنا كل ما عيس التكوين ويتصل
بخطوات التفتح والنمو لهذه النفس الورعة النقية ، التي يخل إلى أنى
لم أخرجها من الظلمة إلا لتكون خالصة للحب والسعادة
اللهم إني أحمدك إذ اخترتني لهذه المهمة !

منذ عامين وستة أشهر ، بينما كنت أصعد من « شودى فون »

إذا بفتاة غضة الإهاب لم أعرفها من قبل تسعى إلى مسرعة لاهثة
لتذهب بي إلى شيخة مسكينة تعاني آلام النزع المريرة على بعد سبعة
فراسخ من مكاني .

وكان الجواد معداً لم أفصله من العربية ليستريح ، فأركبت الفتاة
إلى جوارى ، بعد أن حصلت على مضباح ، إذ توقعت أنى لن أستطيع
العودة قبل الليل .

كنت أعتقد أنى أعرف الناحية كلها جد المعرفة ، ولكن
الفتاة بعد أن مررنا بزرعة « لاسودراى » جعلتني أسلك طريقاً
لم أكن قد غامرت بنفسى فى اجتيازه إلى ذلك الحين . ومع ذلك
عرفت ، على بعد فرسخين منى فى الجهة اليسرى ، بحيرة صغيرة
مستهممه كنت أرتاد حفافها فى بعض الأحيان وأنا فى رونق الصبا
وريق الشباب . ولكنى لم أرها منذ خمسة عشر عاماً ، إذ لم يستدعنى
إلى تلك الناحية أى واجب دينى ، فلم يعد فى وسعى أن أقول أين هى ،
وكنت أثناء هذا الزمن الطويل قد صدفت عن التفكير فيها حتى
أنه خيل إلى حين أخذتها يبصرى وتبينتها بفتة فى سحر المساء الوردى
الضارب إلى صفرة الذهب أننى لم أرها للمرة الأولى إلا فى حلم
من الأحلام .

وكان الطريق ممتداً إلى جانب مجرى الماء ، ثم انشعب عنه قاطعاً
طرف الغابة ، وانبسط من بعد ذلك محاذياً لعين ماء آسن يعلو أديمها

الطحلب الراكد... ونيس من شك في أنى لم أطأ قط هذا المكان .
غربت الشمس وكنا نسير من وقت طويل في الظلام . وعلى
حين بقتة أشارت الفتاة بإصبعها إلى جانب من جوانب ربوة ،
ولفتت نظرى إليه ، فرأيت كوخاً من السهل على الناظر إليه لأول
وهلة أن يعتقد أنه خرب خال من الناس ، لولا خيط دقيق من
الدخان يتصاعد منه ضارباً إلى الزرقة في ظلام الليل ثم إلى الصفرة
حين يعلو إلى تير الأفق .

ولما صرت على قاب خطوات من الكوخ ، ربطت الجواد
إلى شجرة تفاح مجاورة ، ثم لحقت بالفتاة في الغرفة الممتعة التي
يتكون منها هذا المسكن البائس ، فوجدنا الشبيخة قد استوفت
أنفاسها منذ قليل .

وفي ذلك الموقف اصطلع على وحشة المكان وجلال السكون
ورهبة المنظر ، فبعث كل أولئك الرعب في نفسى وأخذ منها كل
مأخذ . ورأيت غير بعيد من الفراش امرأة جاثية مايزال الشباب يألفها .
ويستطيب صحبتها ، ثم أشعلت الفتاة شمعدانا له دخان ، ووقفت
عند مؤخر الفراش جامدة لا تنبس ولا تطرف ، وكنت حسبتها
بادئ الرأى حفيذة الميتة ، ولكنها لم تكن إلا خادمتها ، وقد حاولت
أثناء الطريق كله أن أصل معها حبل الحديث ، ولكنى لم أظفر منها
بما ينفع غلة التشوف .

نهضت المرأة الراكمة ، ولم تكن من أهل المتوفاة كما ظننت عند رؤيتها ، بل كانت جارة صديقة استدعتها الخادم حين رأت سيدتها تذبل وتضعف وتحتضر ، فجاءت وأعلنت جميل استعدادها للسهر إلى جانب الجثمان الهامد ، ثم أنبأتني أن الشيخة لفظت نفسها الأخير في هدوء لا يشوبه ألم . واتفقنا معا بعد ذلك على الأمور الخاصة بالدفن وتشيع الجنازة . وكان من الواجب عليّ ، كما وقع لي كثيراً من قبل في تلك النواحي المنزلة المفقودة ، أن أقرر كل شيء وأقوم بكل أمر

وإني أعترف بأني كنت محرجاً قليلاً ، إذ كيف أترك هذا الكوخ في حراسة الجارة وهذه الفتاة الخادم ، مهما يكن مظهره دالاً على الفقر المدقع ناطقاً بالبؤس البالغ ؟ ومع ذلك ليس من المقبول عقلاً أن يكون في زاوية منه كنز مستتر . . . وماذا كنت أستطيع فعله في هذه الحال ؟ وبرغم ما جال بذهني من الخواطر ، سألت هل تركت المعجوز وريثاً ؟

ولما فرغت من إلقاء سؤالي ، تناولت الجارة الشمعدان وأرسلت ضوءه إلى ركن من الغرفة ، هو مطهى الكوخ ، فاستطعت أن أتبين فيه كائناً غير واضح الأجزاء ، جالساً القرفصاء تدل هيئته على أنه مستغرق في النوم . وكان شعره الكثيف الفينان يكاد يخفي وجهه إخفاء تاماً

قالت لى الجارة :

— هذه الفتاة الضريرة . إنها ابنة أخيها ، إذا صدق قول الفتاة الخادم ، وهى آخر سلالة الأسرة فيما يظهر ومن بقى من أفرادها فى العاجلة . ينبغى إيداعها أحد الملاجئ ، وإلا فلست أدرى كيف يكون مصيرها

ألمنى وآذى نفسى أن أسمع هذه المرأة تبت على هذه الصورة فى مصير الفتاة أمامها ، وبلىل بالى استشعار الحزن الذى قد تنتجه فى دخیلتها هذه الأقوال الخشنة العارية من التجمل والرفق ، فقلت فى خفوت وهدهوء لأدعو الجارة بهذه الوسيلة إلى أن تخفض من صوتها :

— لا توقظيها

— آوه ! لا أظنها نائمة ، ولكنها بلهاء لا تتكلم ولا تفهم شيئاً كما يقال . وهى من وقت قدومى إلى هنا فى هذا الصباح لم تحرك إلى الآن تقريباً . اعتقدت أول الأمر أنها صماء ، ولكن الخادمة تدعى غير ذلك وتقول بأن حالها ترجع إلى أن الشیخة لم توجه إليها الكلام قط ، كما أنه لم توجه إلى أى إنسان آخر ، وأن الفتاة لم تعد تفتح فمها منذ زمن بعيد إلا حين تبل أوامها بشربة أو تتبلغ بلقمة

— وما عمرها ؟

— أظنها فى الخامسة عشرة من عمرها . وعلى كل حال ، فإنى لا أعرف من هذا الأمر أكثر مما تعرف أنت ...

لم يطرأ على ذهني في الحال أن أجعل شأن هذه الفتاة المنبوذة من نصيب عنايتي الشخصية، ولكنني بعد أن فرغت من الصلاة، أو على الأرجح، أثناء إقامة الصلاة راكعًا بين الجارة والخادم الصغيرة الجائعتين مثلي على مقربة من الفراش، أدركت وتمثل لنفسى أن الله جلت قدرته قد وضع في طريق ضربا من الالتزام، وأنى لا أستطيع التنحى عن القيام به دون أن أكون نذلا جبانًا

ولما نهضت من ركوعي، كنت قد أمضيت عزمي على أن أستصحب معي الفتاة في المساء نفسه، وإن كنت لم أستوضح نفسى بعدُ عما يكون من أمرى معها بعد ذلك ولم أسألها عن الشخص الذى سأستودعه إياها ليعنى بحالها

قضيت بعض لحظات فى تأمل وجه العجوز الميتة، وكان فيها ذو التجاعيد والتواء يبدو مشدوداً كأن طرفيه قد جذبا بخيط كيس بنجيل، مدرب على الحرص الشديد فلا يدع شيئًا يفلت منه. ثم التفت إلى الضريبة، ونفضت إلى الجارة جملة ما اتتويت، فقالت: — الأمل أن لا تكون الفتاة هنا غدا حين يأتى القوم للحمل الجثة إلى قبرها.

وكان هذا نهاية الحديث بيننا
ما أكثر الأشياء التى كان من السهل تديرها، لولا الاعتراضات
الوهمية التى يتسلل الناس أحيانًا بابتكارها ! وكثيرا ما حيل بيننا،

منذ الطفولة ، وبين هذا العمل أو ذاك مما كنا نرغب في أدائه ،
لأشياء إلا لأننا نسمع لهذه الجملة تطلق من حولنا في دؤوب
وتكرار : إنه لن يستطيع أدائه ...

أنهضت الفتاة فاستسلمت واستقادت كأنها دابة سليب الإرادة
وكانت قسبات وجهها منتظمة متسقة تحظى بقسط وافر من روعة
الجمال ، ولكنها لم تكن حية فصيحة تمام الإفصاح . ثم تناولت
غطاء وجدته على الحشية التي كانت تتخذها فراشا لها في ركن من
الرفقة تحت سلم داخلي يؤدي إلى مخزن الحب ، وساعدتني الجارة
في صدق ولطف على أن ألف جسم الفتاة بهذا الغطاء لفا محكما ،
لأن الليل كان رطباً على الرغم من صحوه وصفائه

ولما فرغت من هذا العمل ، أشعلت مصباح المركبة ، وقفلت
راجعاً وإلى جانبي في التصاق شديد هذه الكتلة البشرية الساكنة
التي لم ألاحظ عليها الحياة إلا من الحرارة المظلمة التي كانت تشعها
في جسمى

وكنت أفكر أثناء الطريق وأقول لنفسي : أناعة هي ؟ وما
أشد سواد هذا النوم ؟ ! ... وفي أي شيء يختلف السهر هنا عن
النوم ؟ رب إن نفساً سجيئة تسكن هذا الجسد المائل المنحرف ،
وهي تنتظر من غير شك أن يمسيها آخر الأمر شعاع من نور عطفك

ورحمك ! أسمح يا مبدع الكون بأن حي ، ربما يبعد عنها الظلام
البشع المخيف ؟ ...

لا أستطيع الصبر على كتمان الاستقبال السيئ الأليم الذي
لقيته عند عودتي إلى بيتي ، لأنني كلف بالحقيقة أكثر مما ينبغي

زوجي روضة تنبت فيها أغراس الفضائل ، ولم أستطع أن
أشك لحظة واحدة في معدن قلبها النقي الكريم ، حتى في أصعب
الأوقات التي مرت بنا أحياناً وفي أشد الأزمات التي قدر علينا أن
نمانيها ونجتازها . ولكن عطفها الطبيعي ينبغي ألا يُفاجأ ويُغتفل .
إنها شخص مولع بالنظام تصر على أن لا تسبق الواجب قبل أن
يحل ، ولا أن تتوانى عن أدائه في حينه . وبرها نفسه منتظم له
عندها قواعد ثابتة ، حتى لكان الحب كنز يفنيه سوء التدبير
وبسط الكف كل البسط ! وهنا نقطة الخلاف الوحيدة بيننا ...
الفكرة الأولى التي نشأت في ذهنها حين رأتني أعود في ذلك
المساء مع الفتاة المسكينة ، أفلتت من بين شفيتها في هذه الصرخة :
... ما الذي أضفته الليلة أيضاً إلى أعبائك ؟

أدركت أننا سنلج باب المناقشة لا محالة كما هي العادة في كل
مرة ، فبدأتُ بالأطفال أطلب إليهم الخروج ، وكانوا وقيفاً
ونفوسهم في قبضة الدهش وأعناقهم مشرقة على ظمأ إلى الاستطلاع
آه ! لشد ما كان هذا الاستقبال مختلفاً عما كنت أعتناه !

ابنتى العزيزة «شارلوت» الصغيرة هى وحدها التى شرعت.
ترقص طرباً وتصفق يديها ابتهاجاً حين فهمت أن شيئاً جديداً،
شيئاً حياً سيخرج من المركبة . ولكن الآخرين الذين صبتهم أمهم
فى قلبها منذ الطفولة ناروا بأختهم وقذفوها بالكلمات الباردة التى
تطفى شعلة الحماسة ، وأخذوا عليها الطريق لنزل قدمها

مررت بنا لحظات اضطراب وتبلبل وحيرة ، وعجزت امرأتى
وأولادى عن استخلاص السبب الذى يدفعنى إلى إظهار الحرص
الشديد حين أخذت بيد الفتاة وقدت خطاها فى عفاف الرفق
والحذر ، لأنهم لم يدركوا إلى تلك اللحظة أنهم يستقبلون فى دارهم
فتاة فاقدة البصر

ولقد تملكتنى حيرة العجب واستقلتنى رعدة الفزع ، فضلاً
عنهم ، ما أن تركت يدي يدها التى لم أنحها خلال الطريق كله ، إذ
طفقت تصعد أنات عجيبة لا عهد لنا بمثلها من قبل . وفى الحق لم
يكن فى صرخاتها شئ إنسانى ، ويكاد يحزم الذى يسمع لها بأنها
عواء كلب صغير يشكو ويتملعل .

وكانت فى أثناء مشيها تتخلج ركبناها وتنثنى ، وتنزائل ساقتها
وتلتوى ، لا تتقاعها فجأة وللمرة الأولى من حيز المشاعر المألوفة
الضيق الذى كان يشمل كل عالمها . ولما دفعت نحوها مقعداً
سقطت على الأرض قائمة مستسلمة كشخص لم يعرف الجلوس .

طيلة صرره . ولم أر في هذه الحالة بدا من أن أقودها إلى مكان قريب من الموقد ، فاستعادت قليلا من الهدوء والطمأنينة حين استطاعت أن تجلس القرفصاء ، كما رأيته في بيت الشيخة عند دخولي ، على مقربة من الموقد ومستندة إلى حافة المدفأة . وهذه جلستها التي تألفها فيما أعتقد ، لأنها في المركبة أيضا أثناء الطريق ، انزلت على رغبته إلى أسفل المقعد وجمعت نفسها عند قدميّ وظلت على هذه الحال حتى بلغنا البيت .

ساعدتني امرأتى على الرغم من شعورها ، وهى فى غير موارد كلما صدر عنها نزوع أو توثب بمحض الطبيعة وبعيد كل البعد عن التكلف ، كان هذا دائما خيرا اندفاع أراه منها ، ولكن عقلها كان ينافل فى كل حين وينتصر على قلبها فى أغلب الأحيان

قالت بعد أن استقرت الفتاة فى مكانها :

— ماذا انتويت أن تفعل « بهذا » ؟

سرت بحسبى رجفة عند سماعى لكلمة « هذا » الجامدة تستعمل فى الإشارة إلى الفتاة ، ونشأ فى صدرى سخط وغضب ، فأمسكت عليهما فى جهد عنيف ، وساعدنى على ذلك أنى كنت لا أزال متشعبا بتأمل الطويل الهادئ ، ثم التفت إليهم جميعا ، وكانوا قد اجتمعوا من حولى ثانية فى شكل دائرة ، ووضعت يدي على جبين الضريرة ، وقالت لهم بصوت رنان كأنى فى حفل مشهود :

— إنى أعيد إلى الحظيرة الشاة الضالة !

ولكن امرأتى « أميلى » لا تقبل ولا تقرأ أن يكون فى تعاليم الإنجيل أى شىء ، مهما يكن ضئيلاً ، خارج عن حيز المؤلف أو بعيد عن حدود المعقول أو فوق الطاقة ، ومن أجل ذلك أدركت أنها مستحجج ، فأشرت إلى « جاك » و « سارة » لياخذوا الولدين الصغيرين إلى خارج الغرفة ففعلا . وكانا فضلاً عن ذلك قليلي الفضول والتشوف بطبعهما

ظلت زوجى بعد خروج الأولاد مبهوتة بادية الضيق والحيرة ، وخیل إلى أنها مغيظة محنقة قليلاً من جراء بقاء الدخيلة معنا ، فقلت لها :

— تستطيعين أن تتكلمى أمامها ، إن الفتاة المسكينة يستبهم عليها اللفظ ويستغلق دونها المعنى

وما أن فرغت من قولى حتى شرعت « أميلى » تحتج بأن ليس عندهما ما تقول من غير شك — وهذه هى المقدمة المؤلفرة لأطول المناقشات التى تقع بيننا — وأنها لا تجد سيلاً إلا أن تخضع كما هو الشأن دائماً لما عسى أن أبكر ، مما يكون بعيداً كل البعد عن الميدان العلمى ومناقضاً كل المناقضة للأوضاع الماثورة والفكر السليم

ولقد ذكرت فيما سبق أننى لم أبت فى أمر الفتاة ، ولم أفكر ،

أوفكرت على الأرجح في غموض شديد ، في أن من المستطاع إسكانها بدارنا . ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن « أميلي » هي التي بدأت وأوحت إلى الفكرة لما سألتني : هل لم يدُر في خلدي أننا بعددنا الراهن نغلا البيت ويكاد تضيق بنا حجراته ١٢ ثم أعلنت إلى أني أندفع دائما إلى إنفاذ ما أرى دون أن آبه لمقاومة الذين يُفرض عليهم اتباعي ، وأنها من ناحيتها تعتقد أن خمسة أولاد فيهم الكفاية ، وقد قامت بواجبها في الحياة النسوية خير قيام وأدت حساب الأمومة على أكمل وجه منذ أن وضعت « كلود » أصغر أبنائها (وفي هذه اللحظة على التحقيق شرع الطفل يبكي ويصرخ في مهده ، كأنه كان في انتظار النطق باسمه ليحجب بالعويل) ، وهي من أجل ذلك تشعر بأنها بلغت الغاية في بذل الجهد حتى أصابها الكلال والوني

ولما رنت الكلمات الأولى من احتجاجها المثير في أذنيّ ، صعدت من أغوار قلبي إلى شفتي بعض جمل من أقوال المسيح فأثرت احتجاجها ، إذ أدركت أن من فساد الذوق وإنكار اللياقة أن أحى سلوكي بسياج من هيئة الكتاب المقدس وسلطانة . ولكنها لما ذكرت ما أصابها من الضعف والفتور ، ذهل خاطري والتوى على الكلام وطأ بي الخجل والاضطراب ، إذ تذكرت في وضوح وجلاء أنني طالما تركت نتائج توثبي الطائش الذي تلهمني إياه

حماسى ، تقع على عاتق امرأتى وتثقل على نفسها . ومع ذلك ، فإن هذه التهم التى وجهتها لى ، قد ألفت على دروسا فى الواجب المفروض على

ولما هدا بعض ما بى ، ضرعت إليها فى لين ورفق أن تستصرخ الأناة والروية لترى إذا قدر لها أن تكون فى مكانى ، وأن يقع لها ما وقع لى ، أكان فى وسعها ألا تفعل مثل ما فعلت ؟ وهل كان من السهل عليها أن تجد مخلوقا لم يعد له فى الحياة حقا من تلجأ إليه وتعتمد عليه ، وتتركه فريسة المحنة صريع الكربة ؟

سكت قليلا ثم عدت أقول بأنى لا أعذى نفسى مطلقا بالوهم ، فلا أنسى مبلغ التعب الجديد ، فى شتى الألوان والصور ، الذى ستننتجه العناية بهذه الفتاة الضريرة ، ويضاف ضغنا على إبالة إلى أعباء البيت وهمومه . وجهرت لها بأسنى على أنى لم أعد أستطيع مساعدتها أكثر مما أفعل على القيام بما تنوء بحمله . ولما وقفت إلى تهدئة خاطرها جهد المستطاع ، توصلت إليها مرة أخرى ألا تحمل للفتاة البريئة فى صدرها حقدا أو ضغينة ، لأنها لم ترتكب إثما يستوجب هذا الجزاء الأليم . ثم نهيتها فى إيناس وعذوبة إلى أن « سارة » غدت فى سن تمكنها من معاونتها أكثر من ما مضى ، وأن « چاك » أصبح فى مقدوره أن يقوم بشأن نفسه فى غير حاجة إلى عنايتها

والخلاصة أن الله ألهمنى الأقوال اللازمة فى مثل هذا المقام ،
لكى أقنعها وأعبد لها السبل حتى تقبل ما أنا مستيقن بأنها كانت
تنهض به عن طيب خاطر ، لو كان الحادث قد ترك لها فسحة من
الوقت لإعمال الفكر واستلهاام الضمير ، ولو لم أتصرف فى إرادتها
بالمباغته على هذه الصورة

اعتقدت أنى أصبت النجاح وربحت القضية ، لأن « أملى »
العزيزة ما لبثت أن دنت من « جرتود » فى حنان ورقة ، ويدها
المصباح لتفترس فيها قليلا . ولكنها وقفت فجأة وعاد هياجها إلى
أفطح مما كان ، لما أخذت بمجامع عينها قذارة الفتاة التى يعجز عن
وصفها البيان ، ثم قالت وهى تصرخ

— هذا تعفن ! هذا نتن ! نظف ملابسك ... أسرع ونظف
ملابسك ... كلا لا تفعل هنا ... أخرج وطهر ثيابك مما علق بها ...
آه ! رحمتك اللهم ! مستغمر أولادى هذه القذارة ! ليس فى العالم
شئ أخشاه مثل ما أخشى الديدان والدوبيات !

وفى الحق كانت الفتاة المسكينة مثقلة إلى درجة لا يمكن
إنكارها بهذين النوعين ، ولم أستطع أن أجس فى صدرى حركة
اشتمزاز وتقزز ، وأنا أفكر أنى ضمنتها إلى صدرى فى المركبة كل
هذا الوقت الطويل

نظفت ملابسى فى الخارج وعدت إلى الغرفة بعد دقيقتين ،

فوجدت زوجى قد استلقت على أحد المقاعد متساقطة من الغضب والخور ، ورأسها بين راحتها شأن من يكابد برحاء الهموم . ولما دنوت منها وجدتها تعاني أزمة حادة من التشنجات العميقة ، فقلت لها فى لهجة رفيقة أشربتها الحنان الوفير :

— لم أقصد ألبتة إلى أن أخضع صبرك وثباتك لتجربة مثل هذه . ومهما يكن من الأمر ، فإن الوقت قد تقدم هذا المساء ، وليس من السهل علينا أن نبصر جيداً . سأسهر لأراقب النار التى ستنام الفتاة فى دفتها وأتمهد لها بالوقود من حين إلى آخر حتى لا تضعف أو تحبو . وغدا سنقص شعرها ونغسل جسمها كما ينبغي ، ولن نشرعى فى العناية بها إلا حينما تستطيعين النظر إليها فى غير نفور أو غضاضة

ورجوت منها فى النهاية ألا تتحدث إلى الأولاد فى هذا الموضوع . حانت ساعة العشاء ، فجلسنا جميعاً إلى المائدة ، وأحضرت خادمتنا العجوز « روزالى » صحاف الطعام ، وكانت فى أثناء قيامها بخدمتنا ، تصوب نحو الفتاة نظرات حادة تشع العداوة والبغضاء . أما « چرتروء » المسكينة فقد التهمت الحساء الذى قدمته إليها فى شراهة عجيبة

انقضى العشاء فى سكون وصمت ، وكنت شديد الرغبة فى أن أقص ما وقع لى وأتحدث إلى الأولاد وأحرك فى نفوسهم أوتار

«الرحمة وأجملهم يدركون ويحسون غرابة هذا البؤس المستبد الباغي وأهيج في صدورهم العطف على هذه الفتاة التي دعانا الله إلى إيوائها والبر بها ، ولكنى خشيت أن أبعث هياج زوجي تارة أخرى ، فلزمت جانب الصمت ، وكأن أمراً قد صدر إلينا بأن نصدف عن هذا الموضوع وننسى الحادث ، مع أن كلينا لم نستطع دون ريب أن يفكر في شيء آخر سواه

ذهب الأولاد بعد العشاء إلى مضاجعهم ، ودلفت امرأتى إلى فراشها ، فبقيت في الغرفة وحدى ، أستوعب سوانح الآراء وغلجات النفس . وبعد انقضاء ساعة رأيت ابنتى «شارلوت» تفتح الباب في حرص وحذر ، وتتقدم في بطء وهدوء وهى حافية القدمين وفى قيص النوم الفضفاض ، ثم تلقى بنفسها على صدرى وتحتضنى فى قوة متوجدة وهى تجمجم قائلة : لقد نسيت أن أقول لك مساء الخير يا أبى !

نال هذا المنظر من نفسى منالا كبيرا حتى أخذ على التأثير شعاب الكلام فميتت عن الجواب . وكانت «شارلوت» شديدة الرغبة فى أن ترى الفتاة ثانية قبل أن يرتق النوم فى عينيها فجاءت سيرا على حكم هذه الرغبة اللجوج . وبعد لحظات أشارت بسبابتها الصغيرة إلى «چرتروود» النائمة فى براءة تملأ المين والنفس وقالت فى صوت خافت يكاد لا يسمع :

— لماذا لم أقبلها ؟

— ستقبلينها غداً . فلندعها الآن . إنها مستغرقة في النوم
وفي أثناء قولي كنت أقودها برفق إلى الباب الذي دخلت
منه ، ثم عدت إلى جلستي وقضيت بقية الليل في القراءة وإعداد
خطبتي الدينية القادمة حتى تبليج الصبح وتحلب ضوؤه إلى الغرفة
ولقد فكرت في خلوتي وقلت لنفسى (وما أزال أذكر هذا)
إن « شارلوت » أظهرت اليوم من غير شك أنها أكثر عطفاً
وأغزر حناناً من إخوتها الكبار . ولكن ألم يبد كل واحد منهم
في مثل سنها ، هذه المواطف نفسها ؟ . . . حتى « جاك » أكبرهم
أراه بعيداً بمشاعره إلى حد الإغراق ، متحفظاً في عشرته إلى حد
المبالغة . . . يعتقد الإنسان أن في قلوبهم رقة نامية ، ولكنهم في
الواقع يحذقون الظرف والمصانعة ، ويجيدون التدلل والمداعبة

٢٧ فبراير

تساقط الثلج أيضاً بغزارة هذه الليلة ، والأولاد في نشوة
الابتهاج ؛ لأن الإنسان كما يقولون مهلين جذلين سيضطرب في
القريب العاجل إلى الخروج من النوافذ . والحقيقة أن الثلج كان
يحاصر الباب في هذا الصباح ، فلا يستطيع أحد أن يخرج إلى الطريق
إلا من حجرة الغسل . وبالأمس لم يهدأ لي بال حتى ثبت لدى أن

بالقرية من الطعام ما يسد حاجة أهلها ، إذ أدركت أننا سنظل دون ريب بعض الوقت في عزلة عن بقية الناس .
وليس هذا هو الشتاء الأول الذي تحاصر الثلوج فيه بيوتنا ، وتأخذ علينا الطرق والمنافذ ، ولكنى لا أتذكر أنى رأيته في السنين الخالية سميكا كثيفاً إلى هذا الحد الذي يعوق الناس عن أداء أعمالهم وقضاء حاجتهم . وإنى أنتهز هذه الفرصة لأستمر في كتابة القصة التى بدأتها بالأمس .

قلت إنى لم أسائل نفسى قط كما ينبغي حينما اقتدت الفتاة الضريرة ، عن المكان الذى تستطيع أن تشغله فى البيت . وكنت أعلم مبلغ المقاومة الضئيلة التى ستبديها امرأتى ، وأعرف المكان الذى كان فى وسعنا أن نتصرف فيه ، وأدرك تمام الإدراك حدود رزقنا الضئيلة التى تكاد لا تنسج لحاجة الأسرة . ولكنى أقدمت على ما فعلت ، كدأبى دائماً ، مدفوعاً بالاستعداد الطبيعى الذى فطرت عليه ، والمبادئ التى ارتضيتها وملكت على مشاعرى ، فلم أفكر لحظة واحدة فى تقدير النفقة وقيمتها الحساية التى تحمئنى فملتى عبثها الفادح (وهذا ما ظهر لى دائماً مخالفاً للإنجيل) يضاف إلى ذلك اعتمادى على الله ، وارتكائى إلى شخص آخر يجنبنى احتمال النتائج .

ولكنى بعد ترو قليل أدركت فى وضوح أنى ألقيت على كاهل

امرأتى عبثاً ثقيلاً ، فظلت أول الأمر في حيرة وخجل بالنين .
ساعدتها بقدر استطاعتى في قص شعر الفتاة ، وقد رأيت
جيداً أنها تقوم بهذا العمل وهى تجاهد الاشمزاز في دخیلتها . ولما
جاء دور غسلها وتنظيف جسدها اضطررت إلى ترك ذلك لزوجى
تقوم به وحدها ، وحدث الله على أنه أتقذنى من الاشتراك فى هذه
المهمة البغيضة .

والواقع الذى ينبغى الجهر به أن « أمبلى » لم تنبس بعد ذلك
بأقل تأفف أو احتجاج . وخيل لى أنها أطالت التفكير أثناء الليل
وأصبحت على قرار يحجب إليها هذا العبء الجديد . وبدأ لى فضلاً
عن هذا أنها ابتهجت بعملها بعض الابتهاج إذ رأيتها تبتسم حينما
فرغت من تنظيف « جرتروود » وإعدادها .

غطت رأسها الخلق بطاقيـة بيضاء بعد أن وضعت عليه يديـ
طبقة رقيقة من مرهم كان عندى ، ولبست بعض ثياب « سارة »
الداخلية والخارجية النظيفة التى لم تعد تلائم نحوها ، وخلعت الأسـ
القدرة فألقتهـا « أمبلى » فى نار الموقد .

ولا يسعنى إلا أن أسجل هنا أن اسم « جرتروود » اختارته ابنتى
« شارلوت » ورضينا به على الفور لأننا بجهل اسم اليتيمة الحقيقى كما
تجهله هى نفسها ، ولم أدر كيف أصل إلى معرفته . وأيقنت بأن الفتاة
أصغر سناً من « سارة » لأن ملابس هذه لاءمت قواصمها كل

الملاءمة كأنها صنعت خصيصاً لها .

وأجد من الواجب الذى لا محيص عنه فى هذا المقام أن أجهر
بنجية الأمل العميقة التى تملكى قلبى خلال الأيام الأولى . فقد
وضعت لتربية « جرتروود » منهجاً خصب الخيال ، ولكن الحقيقة
انقضت على وأرغمتنى على تناوله بالحذف والتخفيف ، وتقذ تعبير
وجهها الدال على البله وعدم الاكتراث وظلمة العقل ، أو على الأرجح
تعبيره الأبكم الذى لا ينطق أبداً بشئ ، إلى أغوار عزمتى الخالصة
التي خفقت فى نفسى ، فأطلقاً حماسها المتأججة وقضى على نشاطها
المتوثب .

كانت تمكث طوال النهار على مقربة من المصطفى أليفة الحذر
حليفة الخوف والفرع متأهبة للدفاع عن نفسها فى كل لحظة ،
فإذا سمعت أصواتنا ، وعلى الأخص إذا أحست بدنو أحد منها ،
اكفهر وجهها وأشعرت قسماته الناظر إليها الجفاء والخشونة .
وهذه القسمات البكاء لا تعبر عن شئ إلا حين تتلفع بالخوف
والجهومة . وإذا حاول أحداً أن يسترعى انتباهها فى هواده ورفق ،
شرعت تن أنيناً موجعاً وتلاً فضاء المكان بأصوات غريبة تشبه
أصوات الحيوان حين ترعجر وتغضب ، ولا تسكن من نفارها
إلا حين أقدم إليها الطعام فتلتهمه فى شراهة بهيمية هى من أشد
ما يحرق النفس بالألم . وكما يولد الحب حباً مثله ويستجيب له ،

كذلك شعرت لجود هذه النفس العنيد بسيل من الكراهية يهيم على قلبي ويفر مشاعري . أقول هذا حقاً وأعترف علانية بأنني شعرت باليأس يتسرب إلىّ في الأيام العشرة الأولى ، وصدفت عن الاهتمام بأمر هذه الفتاة ، وبلغت بي الحال حد الأسف على ما فعلت ووددت لو لم أكن شملتها بعطفي وجئت بها إلى بيتي .

ومما يستوجب العجب أن « أميلي » حين وقفت على عواطفى التى عجزتُ عن إخفائها جيداً عنها ، أخذتها نشوة الظفر ، وأسرفت فى العناية « بچرتروء » بقلب ملؤه أنقى ضروب الإخلاص فيما يظهر ، من وقت أن شعرت بأن هذه الفتاة أصبحت عبئاً ثقيلاً علىّ ، وأن إقامتها بيننا تخجلنى وتخزىنى .

وإنى لنى هذه الحال ، إذا صديق الطيب « مارتان » ، من « قال تراقر » يسعدنى بزيارته أثناء طوافه على مرضاه . ولما استقر فى جلسته ، قصصت عليه قصة « چرتروء » فاهتم بها جد الاهتمام ، وعجب أشد العجب لحالة التأخر والركود المطلق التى بقيت فيها إلى ذلك الحين ، مهما تكن كفيفة البصر . ولكنى شرحت له كيف أن الفتاة فضلاً عن عاهتها لم تعاشر غير عمة لها يحوز صماء لم تخاطبها قط ، فبقيت التعمسة إلى الآن صامتة جامدة مهملّة إلى أقصى غاية الإهمال . ولما فرغت من شرحى أفهمنى أننى فى هذه الحال أكون مخطئاً إذا استسلمت إلى اليأس ، فلم أدرك رأيه تمام الإدراك ، فماد يقول :

— تريد أن تشريع في البناء قبل أن تثبت من صلابة الأرض وقوة احتمالها . إعلم بأن كل شيء في هذه النفس عماء وبليلة ، وأن الخطوط الأولى نفسها لم تحدّد فيها بعد . وينبغي تأهباً للشروع ، أن تجمع بعض المشاعر الحسية والدوقية وتحكم الرباط بين أجزائها حتى تستسيغها الفتاة ، كما تجمع الأعواد في حزمة ، ثم تقدمها إليها في قالب نعمة أو كلمة تكررهما على مسامعها في إصرار ومثابرة إلى حد المضايقة ، ثم تجتهد حتى تحصل منها على تريد ما سمعت . وبعد أن شرح هذه الطريقة شرحاً وافياً دقيقاً قال :

— وليس في هذه الطريقة كما تظن أثر من السحر . إني لم أخترعها ، وقد لجأ إلى استعمالها كثير غيري قبل اليوم . ألا تتذكر ؟ أنسيت أن أسألتنا حينما كنا ندرس الفلسفة معاً حدثونا عن حالة مشابهة لهذه بمناسبة « كوندياك » وتمثاله الحى ثم استدرك وقال :

— أو ربما قرأتُ هذا بعد عهد دراستنا في إحدى مجلات علوم النفس ... ما علينا ! هذا الموضوع استرعى كل انتباهي واستحوذ على فكرى جملة حتى أنى ما أزال أذكر اسم الفتاة المسكينة التى لقيها في منتصف القرن الماضى طيب من إحدى المقاطعات الإنجليزية التى لا أتذكرها وفرض على نفسه العناية بأمرها . كان اسمها « لورا برذيجمان » ، وهى أشد بؤساً من

« جرتود » لأنها كانت مسجينة الضم والحرس فضلا عن المعنى .
وقد حرر الطبيب مذكرات يومية ، كما ينبغي لك أن تفعل ، سجل
فيها درجات التقدم التي لاحظتها على الفتاة ، أو على الأقل بدأ بتدوين
جهوده التي بذلها في تعليمها . ثابر أثناء أيام وأسابيع في إصرار
وعزم على أن يجعلها تلمس وتحس على التعاقب شيئين صغيرين :
دبوساً وريشة للكتابة ، ثم جعلها تحس على ورقة مطبوعة مما
يستعمل في تعليم المميان الحروف البارزة لكلمتي : دبوس وريشة .
ولكنه بعد انقضاء أسابيع لم يحصل على أية نتيجة ، وخيل إليه أن
جسم الفتاة غير أهل بنفس ، ومع هذا لم ينطفيء في نفسه نور الأمل
والثقة . وهو يقول في مذكراته : « مثلي كمثل إنسان مخن على حافة
بئر عميقة حالكة السواد يحرك الرشاء فيها تحريك اليأس أملاً في
أن تمسك به يد إنسانية » . وذات يوم ، رأى هذا الوجه الجامد
الخالل يضيء بما يشبه الابتسام البادئ . وإنى أعتقد تمام الاعتقاد
أنه حين امتلأت عينه بهذا المنظر ، تفجرت منها دموع الشكر
والحب ، وخرّ جاثياً يحمد الله على نعمته ، إذ أدركت الفتاة بفتة
ما أراد لها الطبيب : أنها أتقنت ! منذ ذلك اليوم ، تنبهت وألقت
بالها لما تسمع ، فتقدمت تقدماً سريعاً ، ولم تلبث أن أكملت
ما يعوزها من المعرفة ، ثم صارت إلى إدارة معهد للغة — هذا إذا
لم تخنى الذاكرة وتجهلني أحدث عن فتاة غيرها ... لأن حالات

أخرى مشابهة ظهرت في الأيام القليلة الماضية وتحدثت عنها الصحف والمجلات طويلاً ، وأعلنت بعضها العجب في قليل من السخف كما أرى ، وردّد البعض الآخر هذا العجب لمثل هذه المخلوقات كيف يتسنى لها أن تكون سعيدة . والواقع الذي لامرأ فيه أن كل واحدة من هؤلاء المحدودات ما إن تلقن كيف تعبّر ، حتى تقص أول ما تفعل مبلغ ما تنعم فيه من الهناءة . وطبيعى أن يتهيج الصحفيون إلى حدّ الدهش والذهول بهذه النتيجة ، ويستخلصوا منها درساً لهؤلاء الذين يستمتعون بحواسهم الخمس ولا يخرجون من إبداء الشكاية والتأمل ...

وهنا قامت بينى وبين «مارتان» مناقشة حادّة ، ثُرّت خلالها بتشاؤمه ولم أقرّ رأيه الذى اقتنصته من بين كلماته ، القائل بأن الحواس لا عمل لها في الواقع إلا لنشر الحزن والتبلىل في نفوس البشر ...

فقاطعتى محتجاً بقوله :

— ليس هذا ما أقصد إليه . أريد أن أقول فقط إن النفس الإنسانية تتمثل الجمال والرخاء والانسجام في رضى وسهولة أكثر مما تصوّر الاختلال والفوضى والخطيئة التى تفسد هذا العالم في كل مكان وتدنسه وتمزقه وتلصق به الأقدار . والحواس هى التى تكشف لنا عنها وتساعدنا على إدراكها ، ومن أجل هذا أفضل أن

أصل عبارة فرجيل : « ما أسعد المزارعين » بالكلمات الآتية ::
« لو كانوا يجهلون المصائب التي تلم بهم » على أن أكلها بهذه
الجملة التي تتعلمها : « لو تسنى لهم أن يدركوا ألوان النعمة التي يستمتعون
بها . ما أهنأ الناس لو استطاعوا أن يجهلوا الشر !

ثم حدثني عن قصة للكاتب الإنجليزي « ديكنز » ، يعتقد أن
مثل « لورا بردجمان » ألهمه إياها ، ووعدني بإرسالها إلىّ بعد وقت
وجيز . وبعد انقضاء أربعة أيام تسلمت حقاً « صرصار البيت »
فقرأتها في لذة قوية عميقة . إنها قصة فتاة ضريرة فيها طول وإسهاب
وتلهب العواطف في بعض المواضع ، نشأها أبوها وهو مستضع
لُعب رقيق الحال حار من المال ، ورباها في وهم الرفاهية والثراء
والسعادة : وهذا كذب حاول « ديكنز » بفته أن يلبسه ثوب الخير
والتقى ، ولكني علم الله لن أفزع إلى مثله في تربية « جرتروود »
مهما تكن الظروف .

لم يكذب يدركني اليوم التالي لزيارة « مارتان » حتى شرعت
أجرب طريقته وأطبقها خير ما أستطيع . والذي آسف له الآن أنني
لم أدوّن الملاحظات كما نصّح لي عن خطوات « جرتروود » الأولى
في هذه السبيل التي يكتنفها التبش من كل جانب ، حتى أنني
شخصياً لم أقدها فيها إلا متحسناً مواقع قديمي . وكنت خلال

«الأسابيع الأولى في حاجة إلى صبر قد لا يثبت عليه عقل ، لا من جراء الوقت الذي تتطلبه هذه الترية الأولية لحسب ، ولكن أيضاً من جراء اللوم الذي جلبته على . ويؤلني القول بأن «أميلي» هي التي صبت على صنف هذا الترغيع . وإنني على كل حال لم أسجل هذا في حديثي إلا لأني لم أحمل في صدري أية ضغينة أو انفعال — وأؤكد ما أقول صراحة — فأحاول إخفاءه في أعماق النفس خشية أن تقرأ امرأتى هذه الأوراق في مستقبل الأيام (ألم يعلمنا المسيح الصفح عن ضروب الإساءة عقب ضربه مثل الشاة الضالة مباشرة ؟) . وأقول فضلاً عما سبق إنني في اللحظة التي يبلغ فيها ألى من تأنيبها أقصى فايتة ، لا أحقد عليها لامتعاضاها من طول الوقت الذي أقفه على «چرترو» . وكل ما أخذته عليها حقاً أنها لم تكن تثق بأن عنايتي ستنتج أى أثر للنجاح المرجو . ولست أنكر أن فقدان الثقة هذا هو الذي آلني ، ولكنه لم ينل من عزيمتي أو يندخل اليأس على نفسي . وطالما سمعتها تقول وتعيد القول «يهون الأمر لو كان من اليسور ، مع ما تبذل من الجهد وتفقد من الوقت ، أن تحصل على أية نتيجة !...» وظلت مستيقنة في إصرار العقل الضيق بأن جهودى تذهب كنفثة في بحر لجى ، فكان من الطبيعى أن تنظر إلى نظرتها إلى الخارج على قواعد الأدب واللباقة حين أحبس على هذا العمل وقتاً كان من الأوفق استخدامه في أغراض أجدى علينا

وأرجح لصفقتنا . وفي كل مرة ترانى مشغولاً بأمر الفتاة ، تجد وسيلة
تذكرنى بها أن شيئاً أو شخصاً ما فى انتظارى ، وأنى أمنح هذه
الفتاة وقتاً كان من الواجب على أن أهبه أولاداً غيرها .

وإنى أعتقد مستنيراً بما لاحظت ، أن نوما من الغيرة هى غيرة
الأمومة تستبد بنفسها ، لأننى سمعتها غير مرة تقول « إنك لم تشغل
نفسك قط إلى مثل هذه الدرجة بأحد من أولادك وهم من صلبك
وأقرب الناس إليك ! » . وفى قولها هذا الحق كله ، لأننى مع كفى
الشديد بأولادى ، ما كنت أعتقد أن من المفروض على أن أشغل
نفسى بهم أكثر مما ينبغى

ولقد تبين لى فى كثير من الأحيان أن مَثَل الشاة الضالة من
أصعب الأقوال نفاذاً إلى بعض النفوس وامتلأ كالقبولها . وهذه
النفوس على الرغم من ذلك تمتد أنها متعمقة فى الدين حريصة كل
الحرص على اتباع أوامره ، وهى لا تستطيع أن ترتفع بالإدراك
فتصدق أن كل شاة من القطيع على حدة يمكن أن تكون بدورها
أعز على الراعى وأسمى قيمة عنده من بقية القطيع جملة . وهذه
الكلمات « إذا كان لرجل مائة شاة ، وضلت إحداها ، ألا يترك
التسعين والتسع الأخرى فوق الجبل فى سبيل البحث عن هذه
الضالة ؟ » أقول إن هذه الكلمات المشرفة بنور الرحمة ، لو جرؤت
على إبداء الرأى فيها صراحة تلك النفوس التى أشرت إليها ، لأعلنت

أنها أبعد ما تكون عن جادة الحق والإقسط .

ولكن بسمات « جرتود » الأولى واستنى وقوت رجائي
ومسحت ما بي من الألم وعوضتني من عنايتي بها المختلفة الصور
عوضاً كريماً ، إذ أن « هذه الشاة إذا وجدها الراعي ، بعثت في
نفسه فرحاً أعظم مما تبعثه التسعة والتسعون الأخرى التي لم تضل
قط » . نعم إنى أعلن هذه الحقيقة وأضيف إليها أن ابتسام أى ولد
من أبنائي لم يغمر قلبي في لحظة من اللحظات بمثل هذا الفرح
الساوى الذى شعرت به حين رأيت هذه البسمة تلوح ذات صباح
على وجه الفتاة الجامد ، وخيل إلى أنها بدأت على حين بغتة تفهم
وتهتم بما كنت أبذل جهدى من أيام طويلة في تلقينها إياه .

اليوم الخامس من شهر مارس . لقد سجلت هذا اليوم كأنه
تاريخ ميلاد ، لأننى رأيت منها فيه بسمة هى في الواقع انقلاب وتجلي
في صورة جديدة ، إذ بُعثت أجزاء وجهها فجأة وانتعشت ودب فيها
ديب الحياة . كان هذا أشبه بخطفة من البرق المباغت يماثل الضوء
الضارب إلى لون الأرجوان في جبال الألب العليا ، الذى يسبق
بزوغ الفجر ويتمتع مهتزا على قممها المغطاة بالثلوج ، فيعين موقعها
ويحسر عنها ظلمة الليل .

وحين رأيت إشراق وجه الفتاة ، تمثل في نفسى أنه تلوّن
صوفى انتشر في دخيّلها ، وجعلنى أتذكر ضوء جبال الألب وأنتقل

بالفكر إلى حوض « بِيَرْدَا » في اللحظة التي هبط فيها الملاك وأيقظ في رفق ماءه الناعس .

استولى على نوع من الغبطة الحادة الساحرة أمام الهيئة الملائكية التي استطاعت « چرتروود » أن تبدو فيها بعتة ، إذ وقع في وهمي أن ما استضافها في تلك اللحظة من الإدراك أقل بكثير من المحبة . حينئذ علمكني نزوع إلى الاعتراف بالجميل ، فانتفضت قائماً ووضعت على جبينها الوضء قبله كانت في ملتي واعتقادي مهداة إلى الله جلّت قدرته آية الحمد والشكر .

بقدر ما كان الحصول على هذه النتيجة الأولى صعباً قاسياً ، كانت خطوات التقدم بعد ذلك سهلة سريعة . وإني اليوم أعاني رهقاً شديداً وأبذل جهداً عظيماً لأتذكر الوسائل التي لجأتنا إليها والسبل التي فزعنا إلى سلوكها . وخيل إليّ في بعض الأحيان أن « چرتروود » تتقدم في وثبات طوال متتابعة كأنها كانت تقصد إلى السخرية من الطرائق .

وما أزال أذكر أنني أصرت أول الأمر على أن أقدم تعرفها بصفات الأشياء على إحاطتها بكثرة أنواعها المختلفة ، فبدأت : بالساخن والبارد والدافئ والعذب والمر والخشن والناعم والشّف . ثم بالحركات : الابتعاد ، الدنو ، النهوض ، التقابل ، الرقاد ، التفرق

التجمع ، الربط ، الحل إلى آخره . . . ولم يكدير بعض الوقت ، حتى أعرضت عن كل طريقة ولجأت إلى التحدث إليها من غير أن أهتم كثيراً بالإجابة على هذا السؤال الذى يمر بخاطرى « أترى ذهنها يسير حديثي ويفهمه ؟ » ولكنى كنت أدعوها وأغريها فى لطف وبطء لتوجه إلى ما تشاء من الأسئلة . وليس من شك فى أن عقلها كان يدأب على الحركة والعمل طوال الوقت الذى أتركها فيه تخلو إلى نفسها ، لأننى فى كل مرة أعود إلى محادثتها ، كانت تقدم إلى مفاجأة جديدة وتجعلنى أشعر بأن كثافة الظلمة التى تفصل بيننا أخذت تخف وتبدد شيئاً بعد شيء . وكنت أقول لنفسى « أليس كذلك ينتصر دفء الهواء وجلد الربيع رويدا على قر الشتاء وقطوبه ؟ » وطالما أعجبت غاية الإعجاب بالطريقة التى يذوب بها الثلج ، وتملته كمعطف تبلى بطائته وتتهتك ، ويبقى ظاهره على حاله المألوف . وكان العجب يملك « أميلي » فى كل شتاء فتعلن إلى « لم يتغير الثلج . يعتقد الإنسان أنه لم يزل متماسك الأجزاء والطبقات على حين أنه كما ترى يتخاذل وينهزم فى مكان يتلوه آخر ، وفجأة يفسح الطريق للحياة فتعود إلى الظهور » .

خشيت أن يعترى السقم « جرترود » ويلازم وجهها الشحوب من قبوعها الدائم على مقربة من المدفأة ، فأردت لها الخروج من حين إلى آخر ، ولكنها ما كانت تقبل أن تستريح إلا متكنة

على ذراعى . وقد أدركت من العجب والخوف اللذين استوليا عليها حين اجتازت عتبة الدار ، أنها لم تخرج إلى الطريق طول عمرها . نعم أدركت هذا من قبل أن تعرف كيف تعبر عنه وتجهز لى به . ولم يكن أحد فى الكوخ الذى انتشلتها منه يعنى إلا بتقديم الطعام إليها وتمكينها من أن تتجنب الموت جوعاً ولا أجراً أن أقول لتمكينها من أن تعيش . ومن أجل هذا كان عالمها القاتم محدوداً بجوانب الغرفة الوحيدة التى لم تغادرها قط . ولم تكن تتأمر بالانتقال إلى عتبتها إلا فى القليل النادر أيام الصيف حين يكون باب الكوخ مفتوحاً يكشف عن الكون الفسيح الساطع .

ولقد قصت على ذات مرة بعد انقضاء ربح من الزمن أنها كانت حين تسمع إلى تغريد الطير فى أعوامها الماضية وتشعر بحرارة الموقد تداعب وجنتيها ويديها ، تحسبهما أثرىن خالصين من آثار الضوء ، وكانت تجمد من الطبع الذى لا شذوذ فيه ، دون أن ترهق الفكر بالدقة على كل حال ، أن الهواء إذا سخن شرع فى الغناء كما يغلى الماء إذا وضع قريباً من النار .

والحقيقة أنها كانت لا تشغل نفسها بأمر ولا تلقى بالها إلى أى شىء ، وظلت تعيش فى ركود عميق حتى جاء اليوم الذى بدأت فيه الاهتمام بشأنها . وما أزال أذكر بشرها المتدفق كالسيل الذى لا ينضب معينه حينما عرفت منى أن هذه الأصوات الرقيقة تصدر

عن مخلوقات حية ليس لها من عمل فيما يظهر إلا الشعور بفرح الطبيعة المبعثر المنثر ، والتعبير عنه بأعذب النغمات (وهي من ذلك اليوم ألقت ترديد هذه العبارة : إني فرحة كطائر) . ومع هذا فإنها لم تفد من هذه المعرفة ، بل استولت على نفسها فكرة أمضتها . وأقامت الحسرة والكآبة في نواحيها ، هي أن هذه النغمات والألحان تعبر عن عظمة منظر لا تستطيع أن تتأمله كغيرها من بنى الإنسان . قالت لى ذات مرة :

— هل حقيقة أن الأرض رائعة الجمال إلى هذا الحد الذى تتغنى به الطير ؟ لم لا يفصح الناس عنه أكثر مما يفعلون ؟ لماذا لا تحدثنى عنه أنت ؟ أتخشى أن تبعث الألم فى نفسى إذ تعتقد أنى لا أستطيع رؤيته ؟ لست على حق فيما تذهب إليه . إنى أرهف السمع لشدو الأطيوار وأعتقد أنى أفهم جيداً كل ما تقول فى لغتها الساحرة . فأجبتها لأواسيها وأرفه عن نفسها الألم :

— عزيزتى « جرتروود » إن هؤلاء الذين يستطيعون رؤية العالم ، يصعب عليهم أن يبلغوا شأوك فى جودة الاستماع إلى غناء الطير .

فمادت تقول :

— لم لا تغرد أنواع الحيوان الأخرى ؟
مثل هذه الأسئلة كانت فى بعض الأحيان تباغتى بالدهش

فأظلل لحظات سام الوجه بادی الاضطراب والحيرة ، لأنها ترغمني على التفكير في أشياء كنت إلى ذلك الحين أتقبلها دون أن أجديها غرابة تدعو إلى العجب . وكذلك استحوذت هذه الأسئلة على ذهني وجعلتني أستنتج للمرة الأولى ، أن الحيوان كلما ازداد ثقله ودنوه من الأرض واشتد تعلقه بها ، ازدادت آلامه واستمرت أجزائه . وهذا ما حاولت أن أشرحه للفتاة ليدخل في روعها ويثبت عليه عقلها ، ثم حدثتها استكمالاً للشرح عن السنجاب وألمابه ، فلما بلغت هذه النقطة سألتني هل الطير هي التي انفردت وحدها من بين سائر الحيوان بالتحليق في الجو ؟ فقلت : كلا . هناك أيضاً الفراشة بأنواعها . فعادت تسأل « وهل تفرد وتصدق ؟ » فأجبت إن لها طريقة أخرى تعبر بها عن فرحها ، وهذه الطريقة مكتوبة على أجنحتها في قالب ألوان شتى ثم وصفت لها ما تمتاز به الفراشة من مختلف النقوش والوشى في إسهاب ودقة .

٢٨ فبراير

أعود بالرواية إلى الخلف قليلاً ، لأنني أرخيت بالأمس العنان لنفسي ، فحق على اليوم أن أجيء بالحديث على سرده وأرجع به إلى مساقه .

كان على ، لكي أعلم « جرتود » حروف الهجاء الخاصة بالعمى

أن أتعلمها قبل الشروع في إلقاء الدروس ففعلت . ولكن الفتاة لم تلبث أن تفوقت على وصارت أكثر منى سرعة ومهارة في قراءة هذه الكتابة التي كنت أجد صعوبة ألّية في استنطاقها ، وأتبع حروفها فضلاً عن ذلك بعيني في رضى وراحة أكثر من تتبعها بأصابعي . وعلى كل حال لم أكن الشخص الوحيد الذي يعلمها ، وكنت سعيداً مبتهجاً أول الأمر بأن أجد إنساناً يعاوننى على القيام بهذا الضرب من العناية ، حتى أستطيع أداء أعمالى الكثيرة المرهقة في أمحاء المقاطعة ذات البيوت المبعثرة المتباعدة التي ترغمنى زيارة المرضى والمموزين من أهلها في كثير من الأحيان على قطع أماد بعيدة مضنية .

وجد ابني « چاك » طريقاً إلى كسر ذراعه أثناء استراسته ذات يوم من أيام العطلة في عيد الميلاد عقب عجيته لتمضيته معنا — وكان قد عاد منذ زمن إلى (لوزان) التي أكمل فيها دروسه الابتدائية ، ودخل كلية أصول الدين فيها .

ومن حسن الحظ أن الكسر لم يكن بذى خطر ، ولما استدعيت الطبيب « مارتان » في الحال ، استطاع أن يعالجه بغير حاجة إلى جراح ، ولكن الحيلة اللازمة في مثل هذه الحال أرغمت « چاك » على البقاء في البيت أياماً لا يبرحه . وعلى حين بفتة بدأ يعطف على « چرتود » ويهتم بمساعدتى في تعليمها القراءة ، وقد

كان إلى ذلك الحين لا يكاد يشعر بها أو يأخذها يبصره .
لم يستمر تعاونه معي إلا الفترة الضرورية لنقشه واستكمال صحته ، أى ما يقرب من ثلاثة أسابيع تقدمت أثناءها « جرتروذ » تقدماً ملموساً يستدرّ الإعجاب وأظهرت غيرة خارقة للمألوف في تعشق الدروس والانكباب على استذكارها ، فكان هذا الإدراك الذى كان إلى أمس القريب غارقاً في الحول قابلاً في الجمود ، لم يكده يسير بعض خطوات حتى طفق يعدو من قبل أن يعرف المشى ويتقنه . ولشد ما أعجبت بالصعوبة الضئيلة التى تلاقيها في إيجاد الصيغة الملائمة لأفكارها ، وبالسعة التى تصل بها إلى التعبير عن الأشياء التى نعلمها معرقها أو التى نحدثها عنها ونصفها لها حين نعجز عن وضعها في متناول إدراكها مباشرة ، إذ أننا كنا نستخدم دائماً كل ما يمكن أن تلمسه أو تشعر به في شرح ما لا تستطيع الوصول إلى معرفته من طريق اللمس أو الشعور ، سيراً على منوال « عدادات المسافات » ، وطريقتها في التعبير لم تكن صبيانية ، بل ناضجة صحيحة ، ولكنها كانت تستعين بأكثر التراكيب ظرفاً وأشدّها بعداً عما ننتظر ونألف لتبرز الفكرة في أجلى الصور وأوضح الأشكال .

وإني أعتقد أن من العبث ذكر الدرجات الأولى التى قطعها هذه التريبة لأنها تماثل ما يصادف في تعليم العمى جميعاً . ودليلي

على ذلك أن كل مدرس يقع في الارتباك عينه حين يعرض لمسألة الألوان مع كل ضرير (وفي هذا الظرف أرى لزماً على أن أقول : إن الألوان لم تذكر في أى مكان من الإنجيل) . ولست أدري كيف ظهر غبرى من المعلمين على هذه الصعوبة ، ولكنى من ناحيتى بدأت بأن أسمى لفتاتى ألوان المنشور وفقاً للترتيب الذى يقدمه إلينا قوس قزح .

ولم أكد أفعل هذا حتى نشأت فى ذهنها حيرة وقام فيه اختلاط بين اللون والضوء ، ولاحظت أن تخيلتها لا تصل إلى التمييز بين نوع الفروق الدقيقة وبين ما يسميه المصورون فيما أعتقد « القوة أو القيمة أو المدى » . وقد لقيت رهقا شديداً فى فهم هذا الموضوع : إن كل لون بدوره يجوز أن يكون له درجات مختلفة فى مبلغ القتامة مثلاً ، وأن من المستطاع أن تمتزج الألوان جميعاً فيما بينها إلى ما لا نهاية . ولما فهمت ما أقول ، ملك عليها الموضوع مشاعرها واستأثر بإعجابها الشديد ، فكانت لا تنى عن العودة إليه والكلام فيه .

وشامت المصادفة بعد ذلك أن أذهب بها إلى مدينة (نيو شاتل) حيث استطعت أن أدخل على نفسها مسرة جديدة ، هى حضورها حفلة موسيقية تستمع فيها إلى مختلف الألحان والنغمات . وانتهزت فرصة الدور الذى تقوم به كل آلة فى « السمفونية » لأعود إلى الحديث فى موضوع الألوان ، فنبهت « چرتروود » إلى أنواع الرنين

المختلفة التي تصدر عن الآلات النحاسية والخشبية ذات الأوتار ،
وشرحت لها أن كل واحدة من هذه الآلات تستطيع أن تردد على
طريقتها في شدة من الصوت تختلف ارتفاعا وانخفاضاً جميع نغمات
السلم الموسيقي ، من أشدها غلظاً إلى أكثرها حدة . ثم سألتها أن
تمثل لنفسها على هذا المنوال في الطبيعة ، أن اللونين الأحمر
والبرتقالى يتناسبان مع رنين الصور والبوق ذى الأنبوتين ،
واللونين الأصفر والأخضر مع رنين الكمان والربابة الكبيرة
(الفيولونسل) والبنم (أى الكمان الكبيرة) ، واللونين البنفسجى
والأزرق يمثلهما فى الألحان ما يصدر عن الناي والزمار والأرغول .
ولم أكد أفرغ من قولى هذا ، حتى امتلأ صدرها بنشوة الفرح
فقضت على ما فيه من شكوك ، وانطلقت تقول وتكرر : « ما أجل
هذا الا بد أن يكون رائعا خلايا ! »

وبعد قليل قالت على حين بغتة « ولكن خبرنى ... واللون
الأبيض ! لم أفهم بعد أى شىء يشبه هذا اللون ... »
وفى الحال أدركت مبلغ ما فى المقارنة التي استصرختها من
الوهن ، ثم حاولت أن أجيب فقلت :
— اللون الأبيض هو الحد الأعلى الذى تختلط عنده جميع
الألحان والطبقات الموسيقية كما أن اللون الأسود هو حدها الداجن
أو الأسفل .

ولكن هذا الشرح لم يرضني ولم يقنعها ، فنبهتني على الفور إلى أن الآلات الخشبية والنحاسية وأنواع الكمان تظل نغماتها واضحة مميزة في حالتى غلظ الصوت وحدته .

اختلط على الأمر وأخذنى العي والحيرة ، كما وقع لى ممها فى كثير من الأحيان والظروف ، ثم بحثت فى طيات عقلى عن مقارنة أستعديها على ارتبائها كى فقلت بعد لآئى :

— إذن إصنى إلى : تصورى اللون الأبيض كأنه شئ نقي لالون له ، ولكن فيه نوراً فقط ، واللون الأسود على النقيض من ذلك ، كأنه شئء مثقل باللون فى جميع أجزائه إلى حد الظلمة وإنى لا أسجل هنا هذه الأطراف من الحديث المتبادل بيننا إلا لأئين مثلاً من المصاعب التى عثرت بها كثيراً .

ومن المزايا الجميلة التى تتحلى بها «چرتود» أنها لا تدعى الفهم مئيناً كما يفعل كثير من الناس إذ يزعمون أذهانهم بفروض وقضايا خاطئة أو تقتقر إلى البحث والتمحيص ، فينتج عن هذا أن تكون حججهم وثمرات فكرهم مهلهلة فاسدة تتخللها العيوب من كل جانب ؛ أما هى فكانت تظل أليفة الضيق والقلق ، ما دامت لا تصل إلى تكوين فكرة واضحة عارية من اللبس والغموض عن أى تصور ذهنى . ومن أجل هذا ازدادت الصعوبة التى ألاقىها ، لأن معنى الضوء كان متصلاً فى عقلها اتصالاً وثيقاً بمعنى الحرارة ، فبذلت

غاية الجهد وعانيت أشد الألم حتى استطعت أن أقطع هذه الصلة القاتمة خطأ بين مسميين متباينين .

وكذلك كنت أجرب خلالها بغير انقطاع مبلغ الاختلاف بين العالم البصرى وعالم الأصوات ، وأرى إلى أى مدى تكون عرجاء كل مقارنة يحاول الإنسان أن يستخلصها من أحد العالمين لإيضاح العالم الآخر .

٢٩ فبراير

ألهتني المقارنات وعاقتني عن ذكر الفرح الوفير الشامل الذى بعثته فى نفسها حفلة « نيوشاتل » الموسيقية ، حيث كان الفنانون يمزفون على وجه التحقيق « السمفونية الريفية » . وأقول على وجه التحقيق ، لأننى لو تمنيت أن أسمعها لحناً ، لما تمنيت خيراً من هذا ، والسبب سهل الفهم لا يعوزه الإيضاح . وبعد أن غادرنا مكان الحلقة بوقت طويل ، ظلت « چرتروود » صامتة وكأنها غارقة فى الدهش والنشوة . ولما استفاقت قليلا ، سألتنى :

— أصدقنى القول ، هل ما تراه ويقع تحت بصرك جميل حقاً

مثل هذا ؟

— جميل مثل ما ذا يا عزيزتى ؟

— مثل « هذا النظر على حافة الندير » .

ترىشت في الجواب ، إذ هداني الفكر إلى أن هذه الأبحاث
والنفقات المستهمة التي يصعب بيانها ، تصور العالم ، لا كما هو في
الواقع ، ولكن كما كان من المستطاع أن يكون ، وكيف يكون إذا
خلا من الشر والخطيئة . ولم أكن إلى ذلك الوقت قد جرؤت على
التحدث إلى « چرتروود » في شأن الخطيئة والشر والموت .

ولما خفت أن يثقل عليها صمتي ، قلت :

— إن الذين يبصرون ، لا يدركون سعادتهم .

فصاحت على الفور قائلة :

— ولكني أنا التي لا أملك نور العين ، أدرك سعادة السمع .

ثم التصقت بي ونحن سائران وأحسست بجسمها الرخص
يثقل في رفق على ذراعي كما يفعل الأطفال الصغار . وبعد هنيهة قالت :

— سيدي الراعي ، أشعر بمبلغ سعادتي ؟ لا ، لا ... إني

لا أجهز بهذا مجاملة لأدخل على نفسك السرور . أنظر إلى . ألا تبدو

الحقيقة في أسارير الوجه حين ينطق الإنسان بغيرها ؟ تستطيع أنت

أن تراها ، أما أنا فإني أدركها من الصوت . أتذكر يوم أجبتني

بأنك لم تبك يوم أثبتت خالي (هكذا كانت تسمى امرأتى) على

أنك لا تعرف أن تقوم لها بأى عمل ؟ لقد صحتُ في وجهك : سيدي

الراعي ، إنك تكذب ! أوه ! لقد شعرت بلكائك في الحال ، وأدركت

من نبرات صوتك أنك تخفى عني الحقيقة . لم أكن في حاجة إلى

لمس خديك لأعرف أن عبراتك كانت تسيل عليهما من عينيك .
ثم كررت هذه الجملة بصوت مرتفع : « نعم لم أكن في حاجة
إلى لمس خديك » .

صعد الدم إلى وجنتي حين رنت هذه الكلمات في أذني ، لأننا
كنا لا نزال في المدينة ، وكان بعض السابليين يلتفتون إلينا في الفينة
بعد الفينة . ومع هذا استمرت في حديثها :

- لا تحاول أن تضرب من حول سياج الوم والفرور ، لأن
من الجبن أن يخدع الإنسان فتاة ضريرة ...
سكتت قليلا وقالت ضاحكة :

- ثم لأن هذه المحاولة لا تجدى ولا تنل مني ما ترى إليه .
خبرني يامسدي الراعي ، إنك لست تفسا ، أليس كذلك ؟
تناولت يدها ورفعتها إلى شفتي ، كأنما أردت أن أشعرها في
صمت يجنبني الاعتراف ، بأنني مدين لها بجزء من سعادتي ، ثم
أجبت خلال هذه الحركة :

- كلا يا «چرترود» ، كلا لست تفسا . وكيف أكون كذلك ؟

- ومع هذا تبكي في بعض الأحيان .

- نعم بكيت .

- ألم تبك منذ ذلك اليوم الذي ذكرتك به ؟

- كلا ، لم ينهل دمني منذ ذلك اليوم .

- وهل لم تعد تميل إلى البكاء ؟
— كلا يا « چرتروود » .
- وهل شعرت في الأيام الماضية بالرغبة في كتمان الحقيقة عنى ؟ تكلم ولا تنكر .
— كلا يا ابنتى العزيزة .
- أتمدنى أن لا تتلمس السبل إلى خديعتى ؟ أتستطيع ؟
— لك حكمك وبين يديك وعدى .
- جميل هذا . أجبنى على الفور : أجميلة أنا ؟
بُهِت عند سماع هذا السؤال المباغت ، إذ لم أشأ حتى ذلك الوقت أن ألقى بالى إلى جمال « چرتروود » الذى لا ينكر ، وكنت أرى فضلاً عن ذلك من العبث المحض أن يشعرها أحد بما هى عليه من حسن وروعة .
- ولما تماكنت نفسى سألتها :
— ولماذا تهتمين بمعرفة ذلك ؟
- إن هذا الموضوع هو همى الذى يحتال فى ذهنى ويمتلج بين جنبي . أريد أن أعرف أنى كيف تعبر أنت ؟ أنى لست لحناً شاذاً فى السمفونية فكيف ترى ؟ إلى من غيرك أوجه السؤال يا سيدى الراعى ؟
- فأجبتها لأدافع عن نفسى جهد المستطيع :

— إن رجل الدين لا يحفل بجمال الوجوه ولا تسترعى انتباهه
روعة القسمات .

— ولماذا ؟

— لأنه يجد في جمال النفوس الغناء كله .

فقلت وقد زمت شفيتها في حركة غضب ساحرة :
— إذن تفضل أن يلهمني صمتك الاعتقاد بأني دمية الخلقة
قبيحة التكوين .

لم أستطع صبراً بعد هذا فصحت قائلاً :

— « جرترود » تعلمين حق العلم أنك جميلة .

فلزمت جانب الصمت وغشت وجهها سحابة من الجدل لم تفارقه
حتى عدنا إلى البيت .

لم نكد نعود حتى استقبلتنا « أميلي » بفتور وجهومة
ووجدت الوسيلة التي تشعرنى بها أنها تستهجن ضياع اليوم على هذه
الصورة . وكان في وسعها أن تنصح لى بما ترى قبل أن نخرج ،
ولكنها رأتنا نغادر المنزل فلم تقل كلمة نستشف منها مضمحل طويتها
شأنها في كل حين وحال ، لتحفظ بالحق في توجيه اللوم حين يحلو
لها أن تفعل .

وهي في الحق لم تلجأ في التأنيب إلى الكلمات ، ولكنها

اقتصرت على الصمت البليغ الناطق بالاتهام الأليم . ألم يكن من الطبيعي ، وهي تعرف أنى ذاهب « بيجرود » إلى حفلة موسيقية أن تسألنا عما سمعنا ، وأن ترى الفرح المترقق في وجه الفتاة وتدرك أنه يزداد ويمظم حين تشعر من جانبها بأقل اهتمام بأسباب غببتها ؟ ولكن « أميلي » لم تصبر على الصمت طويلا ، فشرعت بعد قليل تتكلم . وخيل إليها أنها لكي تشرب أقوالها في هذا المقام بعض الرقة والحنان ، ينبغي ألا تتحدث إلا عن أشياء تافهة واهية الرباط . ولما فرغنا من العشاء وذهب الأولاد إلى مضاجعهم ، انتبذتُ بها ركنًا من العرفة حتى لا تسمع الفتاة إلى حديثنا وسألتها في حدة وخشونة .

— أكدر صفو مزاجك أنى ذهبت « بيجرود » إلى الحفلة

الموسيقية ؟

فأجابت بلا تردد كأنما كانت تشرئب إلى السؤال :

— إنك تعمل لها ما لا ينتظر أن عمله لأحد من أبنائك .

وهذا هو دائماً محور الشكاية ووجه التظلم ، وهو الذي يلهمها في عناد وإصرار رفض الاقتناع بأن من عادة الإنسان أن يحتفل بالطفل المائد وليس بالأطفال المقيمين ، وفقاً لدلالة المثل الذي ضربه المسيح . وآلني فضلا عن هذا أنها لا تقيم وزناً لماهية « بيجرود » التي لا يمكن أن تتطلع بالأمل إلى متعة أخرى غير الاستماع إلى

الموسيقى . وإذا كانت العناية الإلهية قد هيأت لى أسباب الفراغ فى ذلك اليوم على غير المؤلف لكثرة الأعمال التى تتطلب منى سرعة الإنجاز فى الخارج ، فليس هذا سبباً يبرر لوم « أميلى » الجائر . يضاف إلى ذلك أنها تعلم علم اليقين أن كل واحد من أولادى لديه عمل يؤديه أو تقعده عن الخروج ملهامة ومشغلة ، وأنها هى نفسها لا تتذوق الموسيقى ولا يمكن أن تمر ببالها فكرة الذهاب إلى حفلة من هذه الحفلات الفنية مهما يتح لها من الفراغ ، ولو أقيمت على عتبة الباب .

ومما زاد فى حزنى أن « أميلى » جرؤت على التفوه بكلماتها الموجهة أمام « جرتروود » . ومع أنى ملت بها إلى ركن من الغرفة ، إلا أنها رفعت صوتها حتى بلغ مسامع الفتاة .

شمرت حينئذ فى أغوار نفسى بسخط شديد طنى على ما فيها من الحزن والاكتئاب . ولما غادرت امرأتى المكان بعد قليل من الوقت دنوت من « جرتروود » وتناولت يدها الهزيلة ورفعتها حتى لامست وجهى وقلت لها :

— أترين ؟ لم أبك هذه المرة .

فأجابتنى وهى تحاول أن تبسم لتسرى غنى بمض ما بى :
— نعم لم تبك أنت . . . إنه دورى هذه المرة .

وتطلع وجهها الجميل إلىّ ، فرأيته قد ضمّرتَه الدموع .

٨ مارس .

كل ما أستطيع إهداؤه إلى امرأتى من المسرة هو أن أتجنب فعل ما يثير السخط في صدرها . وأمارات الحب السلبية المحض هي التي تأذن لي في إظهارها دون سواها . فإلى أية درجة ضيققت الخناق على حياتي وحصرتها في أضيق نطاق ! هذا ما لا تستطيع أن تقدره ولا يقع لها في حسابان ! ولشد ما أتمنى أن تسألني أداء عمل تهول النفس صعوبته ! إنها لو فعلتُ لهدتُ لأشق الأعمال وأعظمها خطراً ، ولكنها غريبة الطبع ، وكأني بها تعاف كل ما هو خارج عن الأوضاع المألوفة ، حتى أن التقدم في حياة البشر ليس في ملتها إلا إضافة أيام متشابهة الصور والألوان إلى أمثالها الماضية . وهي من أجل هذا لا تتمنى ، بل لا تقبل أن ترى مني فضائل جديدة ، ويدفعها الغلو في هذا المضمار إلى النفور الشديد من أن ترى الفضائل المتعارفة تنمو وتزدهر . وفضلاً عن ذلك تنظر بعين القلق ، إن لم يكن بعين السخط والغضب ، إلى أي جهد تبذله كل نفس تروم أن ترى في المسيحية شيئاً آخر غير امتئناس الفرائز .

ولم أزل أذكر أنى ذهبت ذات يوم إلى «نيوشاتل» ونسيت
أن أمر بيائمة الخردوات التى تتعامل معها لأؤدى ما لها فى ذمتنا ،
وأتباع علية خيط كما طلبت منى «أميلى» عند مبارحة البيت .
خفت النتائج التى قد تستخلصها من هذا النسيان الذى آلمنى
وجعلنى أشعر باستياء من نفسى أكثر درجات من الذى توقعت أن
يستولى عليها ، وعلى الأخص لأنى ماهدت نفسى على إنفاذ ما طلبت
واضعاً نصب عيني أن الوفى فى صغائر الأمور يكون كذلك فى
الكبير منها والخطير . ولست أعالى إذا قلت إنى تمنيت أن توجه إلى
بعض اللوم ، لأنى كنت أستحقه فى هذا الظرف دون ريب ،
ولكن الشكاية القائمة على الوم والخيال طغت فى نفسها على التهمة
الصريحة المحكمة ، كما يحدث فى أغلب الأحيان . آه ! ما كان أجمل
الحياة ، وما كان أخف عبء البؤس الذى نحتمله ، لو كنا رضى وتغنّع
بالآلام الحقيقية الكاثنة دون أن ننصت لأطياف عقلنا ومردته ...
ولكن مالنا ولهذا ! لقد استرسلت فى الحديث وكدت أدون
هنا ما هو أقرب إلى أن يكون موضوع عظة دينية (إنجيل متى
إصحاح ١٢ آية ٢٩) « لا تدع للقلق سبيلا إلى نفسك » .
أعود الآن إلى جوهر الموضوع الذى اعترمت أن أسرده ،
وهو تاريخ بين نمو «چرترود» الفكرى والخلقى .
كنت أرجو أن تنهى لى الأسباب التى تعيننى على تسجيل

هذا النمو وتطوره خطوة خطوة ، وبدأت برواية ما يس هذا الموضوع من التفاصيل . ولكن عافنى عن إتمام ما أردت أن الظروف لم تمنحنى من الفراغ ما يكفى فى تدوين جميع الوجوه والنواحي بالدقة المطلقة ، وأن من المسير على اليوم أن أوفق إلى التسلسل المحكم الذى يتطلبه الترتيب والمنطق .

دفعتنى قصتى دفعا فجلعتنى أقدم فى الذكر والتسجيل آراء تولدت فى ذهن « جرتود » من خلجات نشأت فى نفسها ومخادئات جرت بيننا كان ينبغى أن يتأخر موضعها من الرواية حرصا على توخى الضبط فى السرد ، وكل إنسان ستنجح له المصادفة قراءة هذه الصحائف ، سيشتملكه الدهش من غير شك حين يجد الفتاة تعبر بعد وقت قصير عما تحس بمثل هذه الدقة وتفكر فى مثل هذا الإحكام .

وفى الحق كان تقدمها سريما يحير العقول ويبعث فى النفس إكبارا مشوبا بالدهول : وطالما أعجبنى كيف كان إدراكها يحنطف فى نهم شديد ما أقدمه إليها من الغذاء العقلى وما تستطيع الاستيلاء عليه منه ، وكيف كانت تبذل الجهد المتواصل حتى تلام بينه وبين نفسها وتنضجه تمام النضج ثم تهضمه سهلا سائغا كأنه لم يكن طريقا ولا غريبا . وكانت تلاحق فكرى بنير انقطاع وتسبقه فتخلف فى نفسى الدهش الشديد . وكثيرا ما كنت ، من درس

إلى درس ، أكاد أنكر تلميذتى وأحسنها شخصاً آخر لم أعرفه من قبل .

وفي نهاية أشهر قليلة ، لم يمد يبدو عليها أن إدراكها عانى الركود طوال الأعوام الماضية . وقد أظهرت بعد هذه الفترة الوجيزة على غير المألوف ، من الحكمة ما لا تظهر الكثرة من الفتيات اللاتي يشنت العالم الخارجى أفكارهن وتستأثر شتى البلابل الواهية بخير انتباههن . وفوق ذلك كانت فيما أعتقد أكبر سناً بدرجة محسوسة مما اعتقدنا أول الأمر . ولما تبين لى بالملاحظة أنها تفيد من العمى وتحيل مرارته إلى مصدر عذب تستقى منه المنفعة ، ملت إلى الاعتقاد بأن عاهتها قد تكون من جملة نواحي نعمة أسبغت عليها . وعلى الرغم منى قارتها « بشارلوت » . ولما كنت فى بعض الأحيان أساعد ابنتى فى استذكار دروسها ، كنت أرى ذهنها يتلهى بأضعف الهوام السابحة فى فضاء المكان ، فأقول لنفسى : « مهما أقلب الأمر على وجوهه ، أجد أنها لو كانت لا ترى ماحوالها من الأشياء ، لأصنت إلى خير مما تفعل ! » .

لست فى حاجة إلى القول إن « جرتود » كانت كلغة أشد الكلف بالمطالعة ، ولكنى كنت حريصاً على أن أصاحب فكرها جهد المستطاع ، ومن أجل هذا كنت أفضل أن لا تقرأ كثيراً ، وعلى الأقل أن لا تكثر من القراءة بمفردها وفى غيبتى ، وعلى

الأخص في الكتاب المقدس ، وهذا يبدو غريباً أن يصدر
عن بروتستانتى .

سأين ما استبهم في هذه النقطة . ولكن قبل أن أعرض
لهذا الموضوع الخطير ، أريد أن أسرد حدثاً صغيراً يتصل بالموسيقى
وينبئ أن أضعه في قصتى ، إذا لم تخدعنى الذاكرة ، بعد حفلة
« نيوشاتل » بزمين قصير .

أقيمت هذه الحفلة كما أعتقد قبل العطلة الصيفية التى أعادت
إلينا « جاك » بثلاثة أسابيع . وأثناء غيبته كنت كثيراً ما اجلس
« جرترو » أمام أرغن كنيستنا الصغيرة الذى تختص به عادة الآنسة
« دى لا م . . . » ، وهى التى تقيم الفتاة عندها فى الوقت الحاضر
(بالنسبة للزمن المسابير لحوادث القصة) .

لم تكن الآنسة « لويز دى لا م . . . » قد شرعت إلى ذلك
الوقت فى تعليمها الموسيقى ، وعلى الرغم من حبي لهذا الفن ، فإنى
ضعيف الدراية به ، وكنت أشعر بأنى لا أملك من الكفاية
والجدارة ما يؤهلنى لأن أعلمها شيئاً ألبتة ، وتؤكد هذا الشعور لما
جلست حدثتها لأصاحب أصابعها على المعزف ، إذ قالت بعد لحظات
من الشروع فى المعزف :

— كلا .. أرجو أن تدعنى .. إلى أفضل أن أتدرب بمفردى .
لم يسعنى إلا أن أغادرها عن طيب خاطر ، لأن البيعة من ناحية

مكان مقدس يتطلب التوقر والاحتشام ويفرض الإجلال والاحترام فلا يصح أن ألبث معها فيه منفردين ، ثم لأنى من ناحية أخرى كنت أخشى همسات الناس ولغطهم — مع أنى كنت أجتهد مادة فى ازدراء القالة وتجاهل أمرها — ولكن الشبه قد تطير فى هذا الظرف من حول الفتاة وترجها الظنون أيضاً ، وهذا ما كنت أحاول اتقاءه بجهد الطاقة .

وكلا كنت أخرج لأداء الزيارات التى يفرضها على الواجب وتكون مواضعها قريبة من الكنيسة ، كنت أستصحب الفتاة معى إليها وأتركها فيها تنتظر الساعات الطوال فى كثير من الأحيان حتى أتجز أعمالى وأعود إليها فناخذ سميتنا إلى البيت معاً . وهى لى تجنب الملل ، كانت تشغل نفسها فى صبر وجلد باستكمال ما لم تعرفه من النغمات ، فكنت إذا رجعت إليها فى المساء ، رأيتها شديدة اليقظة والانتباه أمام لحن من الألحان يغمرها بفيض طويل الأجل من نشوة النبضة وسحر الجذل ..

منذ ستة أسابيع أو تزيد قليلا ، وكان ذلك فى الأيام الأولى من شهر أغسطس ، أبلغت « جرتود » البيعة وذهبت لمواساة أيمم عجوز لم أجدها فى دارها ، فعدت أدراجى على الفور لأقود الفتاة إلى البيت ، ولم تكن تنتظر أوتى بمثل هذه السرعة . ولشد ما استحوذ على الدهش وأخذتنى هزة المفاجأة حين رأيت ابنى « چاك » معها .

لم يشعر كلاهما بدخولي ، لأن الصوت الذي نشأ عن خطواتي كان ضعيفاً طفت عليه نغمات الأرغن فأخفته . وليس من طبعي التجسس واستراق السمع ، ولكن كل ما عيس « جرتود » يملك على قلبي ومشاعري .

سرت حينئذ على أطراف أصابعي حتى لا يحدث وقع أقدامي أي صوت ، وصعدت متسللاً على درجات السلم القليلة المؤدية إلى المنبر حيث أستطيع الملاحظة على خير وجه ، وأقول هنا اعترافاً بالحق ، أنني لم أسمع من أحدهما أو كليهما طوال المدة التي لبثتها في مرصدي كلمة نائية لا يصح أن يقال في حضرتي ، ولكن « جاك » كان واقفاً أمامها ورأيت مراراً متعددة يتناول يدها وينقل أصابعها على أصابع المعزف ، فقلت في نفسي : « أليس غريباً أن ترضى من « جاك » بما رفضت قبوله مني ؟ » كان دهشى وألمى من الشدة بحيث لم أجروء على الاعتراف بهما لنفسى ، ولم ألبث إلا قليلاً حتى اعتزمت التدخل ، ولكنني لم أكّد أسرع في إنفاذ ما اتفقت ، حتى رأيت « جاك » يخرج من جيبه ساعته على حين بفته ، ويقول .

— حان الوقت . ينبغي أن أذهب ، فإن أبى على وشك أن يعود . رأيت حينئذ يرفع يدها الراضية المستسلمة إلى شفتيه ، ثم يندفع نحو الباب . انتظرت لحظات حتى أطمئن إلى خروجه ، ثم نزلت على السلم في خفة وحذر وفتحت باب البيعة وقصدت إلى أن تسمع

الفتاة صوته حتى تعتقد أنى آت من الخارج ، ثم بادرتها بقولى :
— چرتروء !! أعلى استعداد أنت للعودة ؟ وكيف حالك
مع الأرغن ؟

فأجابت بصوت طبيعى لا تشوبه شائبة من القلق أو الانفعال :
— نعم على أتم استعداد . لقد حصلت اليوم حقا على بعض
التقدم .

تضيف قلبى حزن يرفض له صبر الصبور ، ولكن أحداً منا
لم ينطق بكلمة تمس الحادث الذى فرغت الساعة من ذكره ،
لا صراحة ولا تلميحاً .

كنت أشعر برغبة ملحة فى مقابلة « چاك » على انفراد ،
وكان من عادة امرأتى و « چرتروء » والأولاد أن يتركونى معه
بعد العشاء نغرق الوقت فى الكتب حتى يستوهن الليل .

انتظرت هذه اللحظة فى لهفة مشتتة حتى حانت ، ولكنى
قبل أن أخطبه شعرت بوجيب أليم فى القلب وعواطف شديدة
الاضطراب ، فلم أدر كيف أجروء على فتح باب الحديث فى الموضوع
الذى كان يقلقنى أشد القلق .

وإنى لنى حيرتى هذه ، إذا هو ينقذنى فجأة من مأزق الصمت
فيعلن إلى عزمه على تمضية العطلة الصيفية كلها معنا . وكان قبل

ذلك بيضمة أيام قد حدثنا عن رحلة إلى جبال الألب العليا يعتمز
القيام بها ، فلقى منى ومن أمه أحسن القبول وأجمل الموافقة ،
وكنت أعرف أن صديقه « ت » الذى اختاره رفيقا فى سياحته ،
ينتظره مؤمنا بقدومه إليه ، فلما أعلن إلى عزمه على البقاء معنا ،
ظهر لى جليا أن هذا التغير لا يخلو من صلة وثيقة بالمنظر الذى
فاجأته بالكنيسة .

أخذنى أول الأمر سخط شديد ، ولكنى خفت ، إن أنا
استقدت له ، أن يفلق ابنى قلبه من دونى ويحكم رتاجه إلى الأبد ،
ثم خشيت أن ينطلق لسانى بكلمات جارحة تستوجب الأسف ،
فبذلت جهداً عظيماً حتى استطعت أن أمسك على ما فى نفسى ،
وقلت فى صوت حاولت وسعى أن أخرجه طبيعياً :

— كنت أعتقد أن « ت » يعتمد على وفائك بكلماتك .

— أوه ! إنه لا يعتمد علىّ فى الرحلة اعتماداً مطلقاً . وهو على
كل حال لن يصعب عليه اختيار صديق آخر يحل محلى . إنى أجد
هنا الراحة التامة كما أجدها فى « أوبرلاند » وأعتقد حقاً أنى
أستطيع استخدام وقتى خيراً من المرح فى الجبال .

— أى أنك وجدت هنا بعد البحث ما يشغلك .

حذق فى وجهى ، إذ أدرك أن صوتى ينم عن بعض التهم

والسخرية ، ولكنه لم يتبين السبب ، فماد يقول في هيئة طليقة :

— إنك تعرف أنى أفضل دائماً الكتاب على المرح في الجبال

فألقيت عليه بدورى نظرة نافذة ، وأجبت :

— نعم يا بنى . ولكن ألا تعتقد أن مصاحبتك لدروس الأرغن

تفضل القراءة بكثير عندك ؟

صعد الدم إلى وجنتيه وأحس به ، فوضع يده أمام عينيه كأنما يريد أن يجنّبهما ضوء المصباح ، ولكنه لم يلبث أن ملك نفسه وقال

في صوت كنت أتمنى أن يكون مشوباً ببعض الاضطراب :

— لا تسرف في اتهامى يا أبى . كان فى نيتى أن أنقض لك

جملة حالى ولا أكتك شيئا من بنات صدرى ، ولكنك صبت

بلحظات قلائل الاعتراف الذى كنت مستعداً للجهر به .

كان يتكلم فى طلاقة وترتيب كما يقرأ الإنسان فى كتاب ،

ويختم جملة فى هدوء كأن الأمر لا يمسه من قريب أو من بعيد .

أوغر صدرى ضبط النفس الذى أبداه ، وملاء غيظاً وغضباً ،

وشعر بأنى على وشك أن أقاطعه ، فرفع يده كأنما يريد أن يقول :

كلا . تستطيع أن تتكلم بعد أن أفرغ من حديثى . ولكنى أمسكت

بذراعه فى هزة قوية وصمت قائلاً وقد أخذتنى الحدة :

— أفضل عندي أن لا يقع بصرى عليك بعد اليوم من أن

أراك تدخل الاضطراب على نفس «خرتود» الزادعة النقية !

لستُ في حاجة إلى اعترافك ! إن استغلال العاهة والبراءة وسلامة الطوية وصفاء السريرة ، لئوم لم أكن أعتقد أنك تخط إلى دركه طيلة عمرك . ومع هذا تخاطبني في مثل هذا التبجح وهذه الصفاقة ! إصغ إلى جيداً : إن « جرتود » أمانة في عنق ولن آتحمّل بعد اليوم أن تخاطبها أو تمسها أو تراها .

فأجاني في تلك اللهجة الهادئة التي استثارت غضبي :

— ولكن ثق يا أبي كل الثقة بأني أحترم « جرتود » كما تحترمها أنت بلا أدنى فارق . وإنك تلصق بي أفطع تهمة وتوجه إليّ أبشع إهانة إذ ظننت أن في سلوكي أو في مضر قلبي نفسه شيئاً معيباً يستوجب اللوم . إنني أحب « جرتود » وأكنّ لها احتراماً كما قلت يبادل هذا الحب في قوته وتقائه ، ومن أجل ذلك أجد مثلك أن إدخال الاضطراب على نفسها واستغلال براءتها وعاهتها أمران ينطويان على الخسة والدناءة .

ثم احتج بأن كل ما يرغب فيه ويتوق إليه هو أن يكون لها عضداً وصديقاً وزوجاً ، وجهرلي بأنه لم يجد من الأمثل أن يتحدث في هذا الشأن قبل أن يستقر على رأى حاسم ، وأن هذا الرأى لم تعرفه الفتاة بعد ، لأنه يرغب في الإدلاء إلى به قبل أن يملنه إليها .

سكت قليلاً ثم استأنف الحديث :

— بين يديك الآن اعترافى ، وثق بأنى لا أخفى فى صدرى شيئاً
آخر غيره .

لما سمعت هذه الأقوال توزعتى الحيرة والذهول ، وكنت
طوال إصغائى إليها أسمع نبض صدغى ودقات قلبى . أعددت اللوم
لأساطه على ابنى ولكنه جردنى رويداً من كل سبب يبعث السخط
فى نفسى ، فشعرت بالتخاذل لضعف الحجة ، حتى أننى فى نهاية
دفاعه ، لم أجد ما أنطق به .

وبعد صمت مرهق طويل ، استجمعت فكبرى وقلت :

— هلم بنا إلى النوم .

ثم نهضت من مكانى ووضعت يدى على كتفه وتابعت الكلام :
— سأنبئك غداً برأى فى كل ما سمعت .

— أعلن إلتى على الأقل أنك لم تعد تشعر بالغضب على .

— إنى فى حاجة إلى الليل لاستشارة الفكر والروية .

لما تقابلت مع « چاك » فى غداة اليوم التالى ، خيل إلتى حقاً
أنى أنظر إلتيه للمرة الأولى . وبدألى دفعة واحدة أن ابنى لم يعد
طفلاً ، بل صار رجلاً فى ميعه الصبا وشرح الشباب ، وأدركت أنى
إذا ظلمت أعتبره طفلاً ، فإن هذا الحب الذى عرفته بفتة يكون فى
نظرى بشما دميماً .

قضيت الليل في إقناع نفسي بأنه طبيعي لا غرابة فيه ولا شذوذ على النقيض مما أجد . ولكن كيف كان يزداد ضيق بهذا الغرام كلما أمعنت في هذا الإقناع ؟ ذلك ما لم أدرك حقيقته إلا بعد مضي زمن قصير .

أردت أن أتحدث إلى « چاك » وأخبره بما استقر عليه رأيي ، وقد همست في أذني عزيزة كالضمير لا تخطئ ولا تتدع ، ونهتني إلى ضرورة منع هذا الزواج مهما كلفني الأمر ، فأخذته إلى نهاية الحديقة ، وبدأت قولي بسؤاله :

- هل أعلنت عواطفك إلى جرتروود ؟
- كلا . ربما شعرت هي بحبي ، ولكنني لم أعترف لها بشيء .
- إذن عدني أن تطيل أجل صمتك وكتمانك .
- أجي ، لقد صاهدت نفسي على طاعتك ، ولكن هل أستطيع أن أعرف ما لديك من الأسباب ؟
- ترددت في إجابة طلبه ، لأنني لم أدر هل الأسباب التي سبقت إلى ذهني في تلك اللحظة ، هي نفسها الخليقة بالذكر في المقدمة ؟
- واعتزافاً بالحق أقول إن صوت الضمير كان أقوى وأوضح من صوت العقل في إملاء هذه الكلمات .

— إن « جرتروود » صغيرة السن غضة الإهاب ، ولا تنس أنها لم تتناول القربان بعد . تعلم يا بني أنها ليست كغيرها من

الأطفال مع الأسف الشديد ، وأن نحوها قد تأخر كثيراً ، وهي
لصفاء دخليتها كما ترى ، تستقبل أقوال الحب الأولى التي تقع على
أذنها بحس مرهف ، ومن أجل هذا بالدقة ينبغي أن لا تُسرّبها إليها .
إن نشر السيطرة على إنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه هو الجبن
المجسم ، وعهدى بك شرفاً تريباً بنفسك عن الجبن والندالة . تقول
إن عواطفك نقية من كل ما يستوجب اللوم ، ولكنى أقول إنها
تشتمل على إجرام لأنها مبكرة سابقة الأوان . إن الحكمة التي
لا تزال تعوز « جرتروود » ، ينبغي أن نهتدى نحن بنورها في سبيل
رعايتها . هذه مسألة ضمير فيما أعتقد .

ومن أجل صفات « چاك » وخصائصه أنه يكفي في إقناعه
هذه الكلمات البسيطة : « إنى أترك الأمر لضميرك وأرضى بحكمه »
التي طالما لجأت إليها في معاملته حينما كان صغيراً .

تقدته خلسة على الرغم منى بنظري السريع ، وكان حادى الرأس
بوشعره المرسل الضارب إلى صفرة الأصيل يلتصق في تموج خفيف
فوق صدغيه ويخفى تحته نصف أذنيه ، ثم قلت لنفسى : « لو
استطاعت « جرتروود » أن تراه ، لما ترددت في الإعجاب بقده
الممشوق ومثاله المرن المستقيم ووجهه النضر الذى لا يزال يحمل
حمة الطفولة البريئة ، ويتدجى فيه مع هذا ظل مباحث من الجد
والخطورة ! » .

قلت له وأنا أنهض عن المقعد الحجرى الذى كنا نجلس عليه :
— شيئاً آخر أريد أن أسألك إياه : قلت إنك كنت تلتوى
السفر بعد غد ... أرجو أن لا تؤجل هذا الموعد . وينبى أن تظل
غائباً شهراً بأكمله . رجائى منك أن لا تحتصر من هذه الرحلة يوماً
واحداً ، آتحمق هذا الرجاء ؟
— نعم يا أبى . سأطيع أمرك .

وفى هذه اللحظة رأيت لونه قد امتقع وانكفأ حتى كست
الصفرة الشديدة شفثيه . ولكنى استنتجت من رضوخه السريع
أن حبه لا بد أن يكون فائراً ضعيفاً ، واقتنعت بهذا الاستنتاج ،
فشعرت ببرد راحة يعجز عنها الوصف كرجل ألقى عن ظهره العبء
الفادح الذى يؤوده ، وعاد خفيف الجسم رافه النفس .
ومع هذا تأثرت بطاعته وخضوعه فقلت له فى رقة وعذوبة :
— إنى أسترد الطفل الذى أحبه .

ثم جذبته إلى فى رفق ووضعت شفثى على جبينه الوضاء ،
فشعرت منه بتراجع ضئيل يكاد لا يُنال بالحس ، ولكنى لم أشأ أن
أتأذى بهذه الحركة أو أدعها تبعث فى نفسى الحزن والاكتئاب .

١٠ مارس .

كانت دارنا صغيرة تكاد لا تفي بما يعوز أفراد الأسرة من

السمة والراحة، وهذا ما كان يضيقني في عملي أحياناً على الرغم من احتفاظي بغرفة ضيقة في الطبقة الأولى كنت أستطيع أن أخلو فيها إلى زائري، ويزداد ضيق على الأخص حين كنت أرغب في التحدث إلى أحد من خاصتي على انفراد دون أن أحتفل للأسلوب وأحتشد لفن الإلقاء، كما كان يقع في هذه الغرفة التي يسميها الأولاد : المسكان المقدس، ولا يلجونها إنقاداً للأمر الذي يحظر عليهم ذلك .

في هذا الصباح نفسه سافر « چاك » إلى « نيوشاتل » ليتناع ما تتطلبه الرحلة من الأحذية، وكانت السماء مصحبة والجو مشرق رضىّ النسمات، نخرج الأولاد مع « چرتروود » بعد الإفطار، يقدودونها وتقودهم في وقت واحد (يسرنى أن أسجل هنا أن شارلوت كانت بنوع خاص ترمي الفتاة وتحافظ عليها) .

هدأ البيت وتهايت لى أسباب الخلوة إلى « أميلي » في الوقت المعين لشرب الشاي الذي كنا نتناوله دائماً في غرفة الطعام العامة، وكنت أتمنى هذه الخلوة لشدة رغبتى في تبادل الحديث معها . ويندر أن أجد نفسى منفرداً معها دون أن أشعر بنوع من الخجل، وخطورة ما اعتزمت قوله في هذه المرة غمزت عليّ الاضطراب كأني مقبل على نشر اعترافاتي الخاصة، لا على مخاطبتها في شأن اعترافات ولدى « چاك » .

وقبل أن أنطق بكلمة، أحسست فضلاً عن هذا إلى أية درجة

يمكن أن يشترك مخلوقان في عيشة واحدة ويتحبا ، ثم يظل كلاهما
لفزاً مستغلقاً على الآخر ، وكيف تكون الأقوال ، سواء أكانت
موجهة منا إلى الغير أو من الغير إلينا ، آنة شاكية كأنها هي ضربات
مسبار تنبهنا إلى صلابة هذا البرزخ الفاصل وقوة مقاومته ، وإلى
أننا إذا أغفلنا أمره ولم نلق إليه بالنا ، فإنه قد يزداد سمكا ومتانة .

بينما كانت تصب الشاي ، قلت مستهلا حديثي في صوت
مرتعش بقدر ما كان صوت ابني بالأمس هادئاً رزيناً :
— تكلم معي « چاك » أمس مساء وهذا الصباح في شأن
جبه لچرتروود .

فأجابني وهي مستمرة في عملها دون أن تنظر إليّ ، كأنما أعلن
إليها شيئاً طبعياً لا غرابة فيه ، أو على الأرجح لا أحمل إليها
خبراً البتة :

— حسناً فعل .

— أفضى إليّ برغبته في الزواج منها . إن عزمه ...

فقلت مغنمة وهي تهزكت فيها في حركة بسيطة :

— كان هذا من السهل إدراكه قبل وقوعه .

قلت وقد تهيجت أعصابي قليلاً :

— إذن فهمت أنت شيئاً !

— شيئاً كان يتضح ويكشف عن نفسه رويداً منذ زمن

طويل ، ولكنه من الأشياء التي تفلت من ملاحظة الرجال وتلتوى عليها .

— كان من الواجب عليك في هذه الحالة أن تلتقي نظري .
وتسترعى انتباهي .

فبدت على ركن من شفتيها المتقلصة قليلا بسمة فاترة ، تلازم في بعض الأحيان كتمان ذات نفسها وتحميه من الافتضاح ، ثم هزت رأسها في انحراف وقالت :

— أفرضُ عليّ أن أنبهك إلى كل مالا تلاحظه أو تلقى بالكـ

إليه ؟

ما دلالة هذا التلميح وما مغزاه ؟ هذا ما لم أعرفه وما لم أشأ أن أحاول الوقوف عليه ، فضربت صفحا عنه وقلت :

— الخلاصة أني أريد أن أسمع رأيك في المسألة التي جئتكـ

بخبرها .

فتهدت وقالت :

— تعرف يا صديقي أني لم أوافق قط على وجود هذه الفتاة بيننا .

كدت أغضب حين رأيتهَا تعود إلى الماضي على هذه الصورة .

ولكني تماكنت نفسي في عناء ومشقة ، وقلت :

— وجود « جرتروود » ليس موضوع حديثنا

فقاطعتني بقولها :

لقد كان رأيي دائماً أن إقامتها معنا لا تنتج خيراً .
وهنا ملكتي الرغبة في استرضائها فاقتنصت جملتها الأخيرة
وأتخذتها وسيلة إلى استدراجها :
— إذن تعتبرين زواجاً مثل هذا شراً . . . ثقي بأن هذا القول
هو ما كنت أروم سماعه منك ، ويسرنى جد السرور أن نستقر
على رأي واحد . وفضلاً عن ذلك فإن « چاك » اقتنع بالحجج التي
شرحتها له وقابلها بالرضا والطاعة ، واتفقت معه على أن يسافر غداً
للقيام برحلته التي ينبغي أن تستغرق شهراً كاملاً ، فاطمئني بالامن
هذه الناحية .

سكتُ قليلاً ثم قلت :

— دفعني اهتمامي مثلك بأن لا يجد « چرتروود » هنا عند عودته
إلى أن أفكر في الأمر ، فوجدت من الأصوب أن أستودعها الآنسة
« دى لا . م » حتى أستطيع الاستمرار في رؤيتها ، إذ لا أخفي أنني
فرضت على نفسي واجبات حقيقية نحوها لا مناص من القيام بها .
وكثيراً ما شعر قلبي بأن الآنسة تود من حبة القلب أن تسدى إلينا
جسلاً ، فهي ستعني « بچرتروود » وسيغمرها السرور حين تعرف
هذه الفكرة كما يدل على ذلك ابتهاجها بإعطائها دروساً في الموسيقى ،
واعتقد أن هذه الطريقة ستريحك من إقامة تثقل عليك .

لم تتكلم « أميلي » لأنها فيما يظهر أصرت على الاحتفاظ بالصمت ، فعدت إلى الحديث :

- وهذه الحالة تحتم علينا أن نعمل ما في وسعنا حتى لا يرى « چاك » الفتاة في محل إقامتها الجديد بنير علمنا ، ومن أجل هذا أعتقد أن من الأمثل شرح الموقف للآنسة « دى لا . م » ألا تقرير رأيي ؟

حاولت بهذا السؤال أن أحصل على كلمة من « أميلي » ولكنها ظلت مضمومة الشفتين كأنها أقسمت ألا تقول شيئاً ، فواصلت قولى ، لا لأن لدى شيئاً آخر أضيفه إلى ما سبق ، ولكن لأنقذ نفسى من صمتها الذى لم أستطع صبراً على احتماله :

- وعلى كل حال فإن « چاك » ربما يعود من رحلته مستيقظاً بارتئاً من حبه . أيعرف الإنسان مجرد رغباته فى مثل سنه هذه ؟ ! فأجابتنى بلهجة غريبة :

- أوه ! وحتى بعد هذه السن لا يعرفها الإنسان دائماً . أغضبتنى لهجتها المستبهمة ذات الحكم اللاذع ، لأننى بطبعى وتكونى كلف بالصراحة ، فلا يلائمنى الغموض بسهولة . وبعد لحظات التفت إليها ورجوت منها أن توضح ما ترى إليه بكلماتها ، فقالت فى نغمة الحزن :

- لا شيء يا صديق . فكرتُ فقط أنك كنت منذ هنيهة
(٥)

تتني أن أنبهك إلى كل ما يفلت من ملاحظتك .
— وإذن ؟

— وإذن قلت لنفسى إن التنبيه ليس من الهين اليسير .
ذكرت أنى كنت أستنكر الغموض ، وحرصاً على هذا
المبدأ ، أبيت السكوت على المعانى المستترة خلف الألفاظ ، فقلت
فى قليل من الحدة والخشونة كما أظن :
— حين تريدن أن أفهم قولك ينبى أن تفصحى أكثر
من هذا .

ولكنى أسفت للهجتى فى الحال ، إذ رأيت شفيتها ترتجفان
بعض لحظات . ولم تلبث أن أشاحت بوجهها وازورت عنى
معرضة ، ثم نهضت وسارت فى العرفة بضع خطوات فى تردد
وتخاذل كأنها مفككة المفاصل منسركة القوى .
وخشيت أن تخرج فصحت سائلاً :

— خبرينى يا «أميلى» ، لماذا يلزمك الاكتئاب الآن ، وقد
دبر الأمر وليس فيه على سواه ما يخشى عواقبه ؟
شعرت فى هذا الوقت بأن التفاتى إليها يضايقها ، فأدبرت
ظهرى واتخذت من المنضدة متكأ لرفقى ومن راجتى مؤثلاً
لخدى ، ثم قلت :

— لقد خاطبتك منذ لحظات في عنف وغلظة ، فانشري على
جناح عفوك .

وحينئذ عرفت من وقع قدميها أنها تدنو مني ، وشعرت
بأصابعها توضع على جيني وهي تقول في صوت رقيق تخنقه
المبرات :

— صديقي المسكين !

ثم غادرت الغرفة على الفور .

وأثبتت في هذا المقام أن كلماتها التي بدت لي في حينها ملففة
مستغلفة ، كشفت لإدراكى عن مغزاها ومرماها بعد زمن قصير .
ولقد دونتها كما ظهرت لي أول الأمر ، وفي هذا اليوم فهمت
فقط أن الوقت قد حان لنقل « چرتود » إلى مكان آخر .

١٢ مارس .

فرضت على نفسى واجبا هو أن أخصص كل يوم جزءاً من
الوقت « لچرتود » يختلف قصراً وطولاً باختلاف الأعمال اليومية
التي يتحتم على إنجازها . وفي غدوة اليوم التالى لحديثى مع « أمبلى »
وجدت لدى فسحة من الوقت ، وكان الجو مغرياً بصفائه ورقة
شمائله ، فخرجت مع الفتاة نسير في مستدقات الغابة تحت قباب
مغمرة من الأغصان حتى بلغنا غضون جبال (چورا) حيث يسيطر

البصر على بقاع من الريف مترامية الأطراف ويمتد من تحت ضباب رقيق شَف إلى جبال الألب البيضاء التي تبعث في النفس دهشة الجمال والفتنة .

لما وصلنا إلى المكان الذي ألقنا الجلوس فيه ، كانت الشمس قد مالت إلى الناحية التي عن شمالنا . وكان يمتد تحت أقدامنا على مسافة طويلة ، مرعى ضعيف الكلأ في بعض نواحيه كثيفه في البعض الآخر ، يرعى فيه على البعد قطيع من البقر ، تحمل كل بقرة منه ، جرياً على عادة القطعان في الجبال ، جرساً صغيراً في العنق . ولما استقر بنا المقام وبلغ رنين الأجراس سمع « جرتروود » قالت وهي تصنى إليه :

— إنها ترسم البقعة والمنظر الذي تراه .
ثم سألتني كدأبها حين نخرج للاستراحة في كل مرة ، أن أصف لها المكان الذي اخترناه لجلوسنا ، فقلت :
— ولكنك تعرفينه قبل اليوم . إننا في طرف الغابة حيث ترى منه جبال الألب .

— وهل تتضح اليوم للنظر ؟
— يستطيع الإنسان أن يراها في أجلى رونق وبهاء .
— قلت لى ذات مرة إنها كل يوم هي في شكل ...
— ماذا أقارنها اليوم ؟ بظماً في يوم صيف قاطظ . قبل ورود

الماء سيكون قد كحل انحلالها وذوبانها في الهواء .
— أريد أن تخبرني هل في المرعى المتراعى أماننا زهرات
من الزنبق ؟

— كلا يا « چرتروود » إن زهرات الزنبق لا تنبت في مثل
هذه الأماكن العالية وربما لا ينمو فيها إلا أنواع منها نادرة .

— ألا ينبت فيها ما يسمى بزنبق الحقول ؟

— ليس في الحقول زنبق .

— حتى الحقول التي في أرياض « نيوشاتل » تخلو منها ؟

— لا وجود لأزهار بهذا الاسم .

— إذن لماذا يقول لنا السيد المسيح « أنظروا إلى زنابق

الحقول » ؟

— لم يذكرها إلا لأنها كانت معروفة في عصره دون ريب ،

ولكن افتنان الناس في الزراعة واستنباط أنواع النبات ، قضى على
هذا النوع من الأزهار .

— أتذكر أنك قلت لي مراراً إن أعظم ما يفتقر إليه هذا

العالم الأرضي هو الثقة والمحبة . ألا تظن أن الإنسان بثقة تريد قليلاً

على ما عنده ، يعود ثانية إلى رؤية زنابق الحقول ؟ إنني حين أصنع

إلى هذا القول ، أوكد لك أنني أراها . سأصفها لك ، إذا شئت —

يكاني بها أجرام من لُهب وشُهب ، أجرام كبيرة من زرق السماء

مملوءة بقطر المحبة يموج بعضها في بعض كلما داعبها نسيم المساء .
لماذا تخفى عني أنها كائنة هناك أماننا ؟ أنى أشعر بها ! أرى المرعى
زاخراً بها !

— إن هذه الزهرات ليست أكثر جمالاً مما ترينها يا عزيزتى
« جرتود » .

— قل إنها ليست أقل جمالا .

— إنها جميلة كما ترينها .

— « وأقول لك في الحق إن سليمان نفسه ، في إبان مجده
وعظمته ، لم يبلغ في كسوته مبلغ أية واحدة منها » .
هذه نبذة من أقوال المسيح اقتبسناها « جرتود » وقالتها في
صوت عذب منغم ، نجيل إلى وأنا أصغى إليها أنى أسمع هذه
الكلمات للمرة الأولى .

وكررت هذه الجملة « في إبان مجده وعظمته » بلهجة الذاهل
الساج في التأمل ثم ظلت بعض الوقت صامته ، فعدت إلى الحديث :
— قلت لك يا « جرتود » . إن من لهم في رؤوسهم أعين ،
هم الذين لا يعرفون أن يروا ويبصروا .

وفي هذه اللحظة سمعت في أغوار قلبي لهذه الصلاة « لك الحمد
يا رب على أنك تطلع المساكين المحدودين على ما تخفيه عن الأذكاء
المحدودين » . وعلى حين بفتة صاحبت الفتاة قائلة في حماسة وبشر :

— آه ! لو تعلم كيف أتصور في سهولة كل هذا ! أيعوزك الدليل ؟ أتريد أن أصف لك المكان ؟ ... تقوم من خلفنا ومن حولنا وفوق مستوى رؤوسنا أشجار التنوب الهائلة ذات الطعم المائل إلى الصنوبر ، والسوق الضاربة إلى حمرة الرمان ، والأغصان الطويلة الأفقية السمراء التي تنن كلما هب عليها الهواء وثناها . وينبسط أمامنا ، ككتاب مفتوح معنى على مِقرأ الجبل ، الرعى الفسيح المخضوض الملون ، الذي تكسبه الظلال زرقة حين تحيم والشمس صفرة حين تبرز ، وكلمات هذا الكتاب الجلية البارزة هي أزهار — من كف الذئب وشقايق النمان وكف السبع وزنايق سليمان البديمة — تأتي الأبقار لتتهجى حروفه بأجراسها وتهبط الملائكة لتقرأ فيه ، ما دامت عيون الناس معلقة كما تقول . وفي نهاية الكتاب أرى نهراً كبيراً كأنه من لبن تكسوه غلالة رقيقة من البخار والضباب ، يغطي هوة هائلة من الأسرار النامضة ، وليس له من شاطئ آخر غير جبال الألب الفتاة هناك على بعد شاسع من مكاننا . . . وإلى تلك المرتفعات الشاهقة سيذهب «چاك» . قل : هل سيسافر غداً حقاً ؟

— استقر الرأي على أن يسافر غدا . هل أخبرك بذلك ؟
— كلا . ولكنني فهمت من تلقاء نفسي . هل سيتنكب وقتاً

طويلاً ؟

— شهرآ... «چرتروود» أريد أن أسألك... لماذا لم تقمى عليّ أنه اجتمع بك في الكنيسة؟

— جاءني في البيعة وقابلني مرتين. أوه! إنني لا أريد أن أخفي عنك شيئاً، ولكنني خشيت أن أسبب لك ألماً. — لقد ولّده في نفسي كتمانك.

تحسست بيدها يدي وقالت:

— كان يحزنه السفر.

— خبريني يا «چرتروود»... هل أسر إليك أنه يحبك؟

— كلا، ولكنني أشعر جد الشعور بهذا من غير حاجة إلى

الجمهور به... إن حبه لي لا يداني حبك.

— وأنت يا «چرتروود» أيؤملك رحيله؟

— من الأصوب أن يسافر، هذا رأيي. إنني لا أستطيع أن أجيبه على عواطفه.

— ولكن أفصحني: أيؤملك سفره؟

— تعرف جيداً أنه أنت الذي أحب ياسيدي الراعي... أوه!

لماذا تسحب يدك؟ لم أخاطبك على هذه الصورة إلا لأنك متزوج.

وفضلاً عن هذا فإن الإنسان لا يبنى بفتاة ضريرة، وإذن ما الذي

يجول دون أن تحاب؟ تكلم ياسيدي الراعي وقل هل تجد هذا

الحب خطيئة وشراً؟

— الشر لا يكون في الحب أبداً .

— لا أشعر بغير الخير في قلبي . لا أريد أن يآلم « چاك » من
أجلى ... أريد أن أجنب الجميع الألم ... لشد ما أرجو ألا تهب
من ناحيتي إلا ريح الصفاء والسعادة !
— « چاك » يفكر في طلب يدك .

— أأأذن لى فى محادثته قبل سفره ؟ أرجو أن أفهمه ضرورة
نزوله عن حى . سيدى الراعى ، أظنك تدرك أنى لا أستطيع
الزواج من أحد . أترانى على حق ؟ ستسمح لى أن أتحدث إليه ،
أليس كذلك ؟

— لك ما تريدن فى هذا المساء .

— كلا . غدا فى لحظة السفر نفسها ...

— تضيقت الشمس إلى المنيب فى روعة أخاذه ، وكان الهواء
رخيا هادئاً ، فنهضنا وأخذنا ، ونحن نتبادل الحديث ، طريق
العودة وقد خيم عليه غبش المساء .

الكراية الثانية

٢٥ أبريل .

اضطرت إلى ترك هذه الكراية بعض الوقت .
تصدع الثلج وذاب ، وما كادت الطرق تعود صالحة للمسير ،
حتى رأيت من الواجب على أن أقوم بإنجاز عدد كبير من
الالتزامات كنت مرغما على إرجائها طوال الزمن الذي بقيت فيه
قريتنا محاصرة بالثلوج . وبالأمس فقط استطعت أن أجد من الفراغ
بعض لحظات .

وفي البارحة أعدت قراءة كل مادونته هنا . . .
واليوم وقد آن لي أن أجروء على تسمية الماطفة التي ظل قلبي
لا يعترف بها وقتنا طويلا ، باسمها ، أكاد لا أفسر لنفسى كيف
استطعت إلى الآن أن أخطئ في إدراكها ، وكيف جاز أن تظهر لي
بعض أقوال «أميل» التي دوتها فيما سبق غامضة مستبهمة ،
وكيف تيسر لي بعد قول «چرتود» الساذج وصراحتها الجلية أن
أشك في حبي لها ولا أتبين حقيقته ! ذلك أنى كنت حينذاك لا أقر
مطلقا حبا حلالا خارجا عن دائرة الزواج من ناحية ، ولا أوافق
على الاعتراف بأى شئ محرم في الماطفة التي تجذبني نحو «چرتود»

بقوة وإلحاح شديدين من ناحية أخرى .
سذاجة اعترافاتها وصراحتها نفسها أدخلت على نفسى الثقة
والطمأنينة ، فكنت أقول فى دخيلتى : إنها طفلة . والحب الحقيقى
لا بد أن ينتج الاضطراب والتبلىل ويسبغ على الوجه حمرة الحجل .
وقد أقنعت نفسى بأنى أحبها كما يحب الإنسان طفلاً عاجزاً ،
وكنـت أعنى بها كما يعنى الإنسان بمريض — وبمرور الزمن أحلتُ
هذا العطف المستمر إلى التزام خلقى ثم إلى واجب .
نعم لقد شعرتُ حقاً فى ذلك المساء نفسه الذى تحدتُ إلى فيه
كما ذكرتُ فى حينه ، بأن نفسى كانت رافهة طليقة فرحة إلى درجة
عظيمة ، ولكنى أخطأت فهمها وجهلت حقيقة أمرها . وظللت
فى الخطأ والجهل وأنا أسطر ما دار بيننا من الأحاديث . ولكونى
كنتُ أعتقد أن الحب شئ يستوجب اللوم ، وأرى أن كل
ما يستوجب اللوم يثقل على النفس ، ولم أشعر قط بأن نفسى
مثقلة بحنية ، فإنى لم أعتقد بأن الحب يجرى خلال عواطفى
وأرانى سجلت هذه الأحاديث ، لا كما وقعت وحسب ، بل
سطرتها أيضاً فى هذا الاستعداد الفكرى الذى ذكرته . وأقول
فى صدق وإخلاص إبنى لم أفهم وأدرك حق الإدراك إلا حين أعدت
قراءتها هذه الليلة .

أذنت « لچرتروود » فى تبادل الحديث مع « چاك » إنفاذا
لوعدى ، وعقب سفره مباشرة ، استردت حياتنا بحراها البالغ
فى الهدوء . وهو لم يرجع من رحلته إلا فى الأيام الأخيرة من
المطلة ، وكان يتكلف اجتناب مقابلتها تارة ، ويتصنع العزم على أن
لا يكلمها إلا تحت سمنى وبصرى تارة أخرى .

انتقلت الفتاة كما اتفقنا إلى الإقامة فى بيت الآنسة « لوز »
حيث كنت أراها كل يوم . ولكنى تعمدت أن لا أتحدث إليها
فى شئ يفتح عنه الانفعال والتأثر ، إذ كنت لا أزال أخاف الحب
وأرهب جانبه . ولم أعد أخطبها إلا فى لغة الراعى ولهجته وفى أغلب
الأحيان فى حضرة « لوز » ، موجها اهتمامى على الأخص إلى تعليمها
الدينى لأعدها إعداداً كافياً « لتناول القربان » فى عيد القيامة . ولما
جاء يوم العيد تناولت القربان أنا أيضاً .

كان ذلك منذ خمسة عشر يوماً . ومما بث الدهش فى نفسى
أن « چاك » وقد آب من سفره ليقضى معنا أسبوعاً من المطلة ،
لم يصحبنى إلى « المائدة المقدسة » ويدعونى إلى الأسف اضطرارى
إلى القول إن « أميلى » تعينت مثله للمرة الأولى من يوم زواجنا
إلى الآن . وغالب الظن أنهما تعاهدا على ذلك وأزمنما بتغافلهما
هذا الموعد الحافل أن يلتقى على ابتهاجى ظللاً قائمة . وفى هذه الحالة
أيضاً هنأت نفسى بأن « چرتروود » لم تستطع أن ترى ما وقع ،

وبأني قاسيت وحدى ثقل هذه الظلال .
كنت أعرف امرأتى معرفة وثوق وخبرة ، ومن أجل ذلك
أدرك تمام الإدراك كل تأنيب مستتر توجهه إلى عن طريق سلوكها
وهي لم تقدم قط على استهجان أعمالى فى صراحة وعلائية ، ولكنها
تلجأ إلى إظهار استنكارها بالكون إلى ضرب من الإعراض والعزلة .
ولقد همى على قلبى سيل الحزن العميق من أن شكاية من هذا
النوع — أريد أن أقول : كما أكره أن أعتبرها — استطاعت أن
تثنى نفس « أمبلى » حتى تصرفها عما كانت تعده أسمى الواجبات .
ولما عدت إلى البيت ، صليت من أجلها بقلب ملؤه الصفاء
والإخلاص .
أما تقيب « چاك » فكان يرجع إلى أسباب أخرى كشف لى
عنها حديث جرى بيننا بعد ذلك بأيام قلائل .

٣ مايو

دفعنى تعليم « چرتود » الدينى إلى أن أعيد قراءة الإنجيل بعين
جديدة ، وكنت أتبين كلما أمعنت فى الاطلاع أن عدداً كبيراً من
الأفكار والتصورات الذهنية التى تتكون منها عقيدتنا المسيحية ،
ناشئة عن تفسيرات القديس بولص ، وليس عن أقوال المسيح .
كان هذا بالذات موضوع المناقشة التى جرت أخيراً بينى وبين

« چاك » ، وقد أصبح من المتعصبين للتقليدات والمعتقدات الدينية الماثورة ، لأن مزاجه الذى يشوبه بعض الجفاف ، لم يدع قلبه يد ذهنه بالغذاء الكافى . وهو من أجل هذا يأخذ على أنى أختار من المذهب المسيحى « ما يحلو لى ويستدر إيجابى » ولكنى فى الحق لا أختار قولاً بعينه من أقوال المسيح ، وانما إذا خيرت بينه وبين القديس بولص ، وقع اختيارى عليه . وابنى مخافة أن يحمل أحدهما معارضا للآخر ، يرفض التفرقة بينهما ، ويأبى أن يشعر بالانتقال من أحدهما إلى الآخر بتباين فى الإلهام ، ويحتج إن قلت إنى أسمع لرجل فى قول القديس بينما أستمع إلى الله فى قول المسيح . وكما استرسل فى تعقله وإبداء حججه ، ازدادت اقتناعا بهذه الفكرة : إنه لا يتأثر مطلقا باللهجة الإلهية الخالصة التى تلازم كل كلمة من أقوال المسيح .

إنى أبحث خلال الإنجيل عن وصايا ووعيد ودفاع فلا أظفر بباطل . . . كل هذا من عند القديس بولص وحده ، وعدم وروده أصلا فى أقوال المسيح ، هو على وجه الدقة ما يضائق « چاك » والنفوس المماثلة لنفسه لا تكاد تفقد الحس بأن إلى جانبها أوصياء وصفا من المصاييح ، وحواجز واقية ، حتى تعتقد أنها ضلت وصارت إلى التهلكة . وفضلا عن هذا فإنها تنظر بعين الاستياء والضيق إلى حرية يستمتع بها غيرها ، وتنزل هى عنها ، وتمنى أن تحصل

غصيبا على كل ما يبدو الاستعداد الكريم لمنحها إياه بدافع
الإيمان والمحبة .

قال لى « چاك » :

— ولكنى يا أبى أتمنى أنا أيضا سعادة الأنفس .

— كلا يا عزيزى . إنك تتبنى خضوعها .

— إنه فى الخضوع تكون السعادة .

تركت له الكلمة الأخيرة ولم أجبه ، لأنى لا أحب الجدل ،
ولكنى أعلم جد العلم أن الإنسان يفسد السعادة ويعرضها للخطر
إذا ما حاول أن يحصل عليها بما ينبغى ، على النقيض مما يظن ، أن
يكون نتيجة لها فقط ، وعلى فرض صحة الفكرة القائلة بأن النفس
المحبة تنعم فى خضوعها وتنتبط ، فإنه لا شئ يبعد الإنسان عن
السعادة أكثر من خضوع بغير محبة .

والحاصل أن « چاك » فطنٌ جيد التعقل ، وإذا كنت أتألم
من أن أجد فى عقل ناشئ كهذا كثيرا من الصلابة المذهبية وهو
ما يزال شابا ، فإنى مع هذا أعجب غاية الإعجاب دون رب بقيمة
حججه وثبات منطقته وجلده . ويبدو لى فى كثير من الأحيان أنى
أصغر منه سنا ، بل أصغر منه اليوم عما كنت بالأمن ، فأكرر
هذا القول : « إن لم تعودوا كأطفال صغار ، فلن تدخلوا ملكوت
السموات » .

أخيانة منى للمسيح ، وتصغير للإنجيل وتدنيس لحرمته ، أن أرى فيه على وجه الخصوص « طريقة منظمة للوصول إلى حياة السعداء الأبرار » ؟ إن حالة الرضا والفرح يحول دونها شكتنا وقسوة قلوبنا وصلابتها ، مع أنها حالة إجبارية للمسيحي ، فكل فرد جدير بقسط يناسبه من البشر والفرح ، وكل فرد يجب عليه أن يطمع فيه ويطمح إليه . إن بسمة « چرتود » وحدها علمتني في هذا الشأن أكثر مما أفادت هي من جميع دروسى التى ألقيا عليها . وقد برز أمام عيني قول المسيح هذا وضاء ساطعاً « لو كنتم عمياء ، لما كان لكم خطايا مطلقاً » . إن الخطيئة هى ما يعكر صفاء النفس ويضرب عليها الظلمة ، هى ما يعترض فرحها ويطارده ، ولهذا تنشأ سعادة « چرتود » الكاملة المشرقة من جميع أجزائها النضرة ، عن جهلها التام بالخطيئة ، فليس فيها إلا نور ومحبة .

وضعت بين يديها اليقظتين الأناجيل الأربعة والمزامير ورؤيا القديس يوحنا ورسالاته الثلاث حيث تستطيع أن تقرأ هذه الجملة « الله نور وليس فيه أى أثر للظلمات » كما تنبأ لها أن تقرأ من قبل في إنجيلها هذه الكلمات « إني نور السموات والأرض ، فمن تبعني فلن يمسي في الظلام » ورأيت أن أضئ عليها برسائل بولس الرسول ، إذ ما دامت تجهل الخطيئة الجمل كله لأنها ضريرة ، فكيف يجوز أن أزعمها بأن أدعها تقرأ هذه العبارة « اكنسبت

الخطيئة قوة جديدة بالوصية » . (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية الإصحاح السابع آية ١٣) والمنطق الذي يليها مهما يكن رائعا خلافاً ؟

٨ مايو

حضر الطبيب « مارتان » بالأمس من (شودي فون) لزيارتي واختبر طويلاً عيني « چرتروود » بالمجهر الخاص بالرمد ، وأخبرني أنه تكلم في شأنها مع الطبيب الإخصائي « رو » المقيم بلوزان ، وأنه سيدلى إليه بملاحظات لا محالة . والرأى عندهما أن الأمل كبير في رد البصر إلى الفتاة بعملية جراحية ، ولكننا اتفقنا على أن نخفي عنها هذا الموضوع حتى يجتمع لدينا بعد البحث أسباب الثقة بالنجاح ، إذ ما الفائدة من إيقاظ أمل في نفس « چرتروود » قد تضطر إلى القضاء عليه قبل أن يستفيق ؟ ثم ألم تكن سعيدة في حالتها هذه ؟ ... وقبل أن يذهب « مارتان » إلى نيّته ، طلبت منه أن يعود إلى بما يستقر عليه رأى زميله .

١٠ مايو

اجتمع « چاك » « چرتروود » في حضرتي يوم عيد القيامة — على الأقل رأى ابني الفتاة ثانية وتحدث إليها ، ولكن في أشياء تافهة (٦)

لا قيمة لها ولا خطر . وقد أظهر أنه أقل انفعالا وتأثراً مما كنت أظن وأخشى ، فدلتني ذلك مرة أخرى على أن حبه لو كان مضطرباً حقاً ، لما استطاع أن يخمدته في مثل هذه السهولة ، مهما تكن « جرتود » قد أعلنت إليه قبل سفره في العام الماضي أن هذا الحب ينبغي أن يظل بلا أمل . ولاحظت أنه على غير عادته التي ألفها في الماضي ، يخاطب الفتاة بالتمظيم ، وذلك ما كنت أفضله من غير شك . ومع ذلك لم أسأله السبب ، لأنني قنعت بالغبطة التي شعرت بها واستخففتي حين رأيته يدرك هذا من ذات نفسه . . . إن قلبه يشتمل على كثير من الخير بلا نزاع .

وبرغم ما ذكرت ، فإني أظن خضوع « چاك » لم يتحقق إلا بعد عناء ونضال . ومن الشاق المكدر أن الضغط الذي رأى من الواجب أن يفرضه على قلبه ، يبدو له الآن خيراً في ذاته ، ويود لو يراه مفروضاً على الناس جميعاً . وقد أحسست برغبته هذه جلية في المناقشة التي جرت بيننا وذكرتها فيما سبق . ألم يقل « لاروشفوكو » إن العقل في أغلب الأحيان خُدعة القلب ؟

ومما لا يحتاج إلى إيضاح أني لم أجرو على لفت « چاك » إلى هذه الحكمة أثناء المناقشة ، لأنني أعرف مزاجه وأعتقد أنه من الذين لا يزدحم الجدل إلا عناداً وإصراراً على رأيهم ، ولكنني في المساء نفسه ، وجدت ، وفي أقوال القديس بولص على وجه

التحقيق ، ما أجيبه به (لم أستطع مصاولته إلا بأسلحته) فوضعت في غرفته خلصة ورقة صغيرة تحمل هذه الآية « لا يَدِين من لا يأكل من يأكل لأن الله قَبِلَه » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ٢^(١)) .

كنت أستطيع أيضاً أن أسطر هذه الآية تكلمة للسابقة « إني عالم ومتيقن في يسوع أن ليس شيء نجساً بذاته إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح ١٤ آية ١٤) ولكنني أحجمت خشية أن يفترض في ذهني من ناحية « جرتود » تأويلاً شائئاً معيباً ، لا يصح مجرد مروره بياله . ومن الواضح البين أن هذه الآية تتكلم عن الأغذية ، ولكن أليست ككثير غيرها من آيات الكتاب المقدس تلهم الناس معنيين أو ثلاثة ، مثل (« إذا كانت عينك » . . . ومعجزة عرس قانا الجليل إذ أحال المسيح الماء إلى خمر ، ومعجزة أرغفة الشعير الخمسة التي أشبعتم نحو خمسة آلاف رجل كما ورد في الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا ، الخ . . .) .

وليس الأمر هنا ، أمر جدال ، فإن معنى هذه الآية وسيع عميق ، والتقييد ينبني ألا عليه القانون ، بل تقضى به المحبة ، ومن أجل هذا ، قيدها القديس بولص بقوله « فإن كان أخوك بسبب

(١) نقلنا نصوص الآيات من الأناجيل العربية المتداولة .

طعامك يحزن فلست تسلك بعد حسب المحبة» (إصحاح ١٤ آية ١٥)
حقاً إن الشيطان يهاجمنا ويغزونا لخلونا من المحبة . رب طهر قلبي
من كل ما عداها . . . ما كان أشد خطي في استنارة ابني واستفرازه !
في اليوم التالي وجدت على مكتبي الورقة نفسها التي نقلت فيها الآية
وقد كتب « چاك » على ظهرها : « لا تهلك بطعامك ذلك الذي
مات المسيح لأجله » (رسالة بولص الرسول إلى أهل رومية إصحاح
١٤ بقية الآية ١٥) .

أعدت قراءة الإصحاح مرة أخرى فوجدته يفتح باب مناقشة
لا تقف عند حد ، فهل أعذب بضروب القلق نفس « جرتود »
وأشر النيام الجون على سمائها المشرقة بأسطع الأضواء ؟ — ألا
ازداد قرباً من المسيح وأزيدها مى دنوا منه حين أعلمها وألقى في
اعتقادها أن الخطيئة الوحيدة هي الاعتداء على هدوء الغير وسعادته
أو إفساد سمادتنا الخاصة وتمريضها للخطر ؟

إن بعض النفوس مع الأسف الشديد تظل معرضة عن
السعادة بطبعها عسية عليها إلى درجة عجيبة ، فيها خرق وغباء
وافتقار إلى القابلية والاستعداد . . . إني أفكر في امرأتى « أميلي »
المسكينة ، لأنى أدعوها إلى السعادة وأدفعها دفعاً إليها وأكاد
أرغمها على أن تهأن وتسعد . نم جودى لو أنهض كل فرد وأدنيه من
الله . ولكنها تستخفى على وتقلت من رغبتي وتنطوى على نفسها بغير

انقطاع كبعض الأزهار التي لا تنفع في تفتحها أشعة الشمس، وكل ما يقع عليه بصرها يقلق بالها ويحزن نفسها .
أجابتنى ذات يوم :

— ماذا تريد يا عزيزى ، لم يتيسر لى أن أكون ضريبة .
آه ! ما أفسى سخريتها هذه ، وما كان أشد حاجتى إلى بذل الجهد لأجنب نفسى الاضطراب ! ومع هذا كان عليها أن تفهم ،
فيا أرى ، أن تلميحها إلى عاهة « جرتود » من شأنه أن يجرح شعورى جرحاً أليماً . وقد جعلتنى بقولها أحس أن ما يستدر إجابى من الفتاة بنوع خاص هو حلها ووداعتها الوفيرة . وفى الحق إنى لم أسمعها قط تحمل على أحد من الناس أو تأخذ عليه ما يستوجب التملل والشكاية ، ومن الطبيعى أنى أحرص على أن تجهل كل ما يمكن أن يؤلمها ويؤذى شعورها .

وكما أن النفس المبهجة بإشراق المحبة فيها تنشر السعادة من حولها ، كذلك كان محيط « أميل » مستوحشاً قائماً . ويدكرنى هذا « بأميل » الذى لو أراد أن يصف نفسه لقال إنها نسيج من أشعة سوداء !

حين كنت أعود بعد نهار أفضيه فى جهاد الوعظ والإرشاد وزيارة المرضى والمعوذين والراحين تحت أعباء النوازل والملمات ، وأدخل البيت والليل يرخى سدوله متساقطاً من الإعياء والكلال

في بعض الأحيان ، والقلب في أشد الحاجة إلى الراحة والعطف والحرارة ، كنت لا أجد في غالب الأوقات إلا ألواناً من التبيكيت والمشادة ، فيحملني هذا على تفضيل الرياح الشديدة والأمطار الغزيرة خارج المنزل .

أعرف جيداً أن خادمتنا المجوز « روزالى » لا تنفذ أبداً إلا رأيها ، وهى ليست على خطأ في كل مرة ، كما أن « أميلى » ليست دائماً على صواب حين تحاول أن تخضعها لرأيها . وأعلم جد العلم أن « شارلوت » و « جاسبار » يكثران من الهياج في البيت ، ولكن أما كان يتيسر لامرأتى أن تحصل على نتيجة مرضية لو خفضت قليلاً من الصراخ الذى تتبعهم به في كل حين ؟ إن الإغراق في النهي واللوم والتمنيغ يفقدهما الأثر المرجو منها ، كما يكسر تعاقب المدّة على شيطان البحار من حدة الحصى الذى يكسوها . ومن أجل هذا كان أولادى لا يبالون بها ولا يابهون لها إلا قليلاً على النقيض منى .

أعرف أن « كلود » الصغير يعانى ألم الأسنان الناشئة (هذا على الأقل ما كانت أمه تمل به عويله كلما شرع فيه) . ولكن أليس يفريه بالإيمان فى الصراخ أن تهرع إليه فى الحال ، هى أو أخته « سارة » ، وتدلله فى افتتان واستمرار ؟ إنى أعتقد فى إصرار بأنه كان يقلل كثيراً من عويله لو ترك جملة مرات متعاقبة يفرغ كل ما عنده منه أثناء غيبتى . ولكنهما مع الأسف لا تملان إلا

على العكس مما أشتهى ولا تدلّ لانه إلا حين أكون خارج المنزل حتى إذا عدت أطلق ما أمسك عليه من الصراخ والعويل .
وتشبه «سارة» أمها جد المشابهة ، وهذا ما جعلني أود لو أستودعها مدرسة داخلية ، وهى لا تشبه أمها كما كانت هذه فى سنّها حين كنّا خطيبين ، ولكن كما حورتها هموم الحياة المادية ، أو على الراجح كما صيرتها زراعة هذه الهموم (إذ أن أمي تزرعها حقاً وتتمهدها بالرى والعناية) . وليس من شك فى أنى أكاد أنكبر اليوم الملاك الذى كان يتسم فى الزمن الماضى لكل توثب نبيل يصدر عن قلبى ، والذى كنت أحلم بوحى النريزة أن يشاركنى فى حياتى ، وكان يحتمل إلى أنه يقودنى ويسبقنى نحو النور — أكان هذا حقيقة ، أم أن الحب فى ذلك العهد كان يضلى ويجدعنى ؟ ...
ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إنى لم أرم من «سارة» اهتماماً إلا بكل تافه مبتذل ، ولا استسلاماً إلا للهموم الضئيلة الحقيرة على منوال أمها .
وكانت قسّات وجهها نفسه ، تحمل سمة البومى والإكتئاب وتلفع بما يشبه الغلظة والخشونة . وليس لها أقل ميل إلى الشعر أو رغبة مذكورة فى القراءة ، ولم أباغ قط بينها وبين أمها مجاداة تستهوينى فأنشئ الاشتراك فيها ، وحين أكون معها أحس بوحدة أثقل على نفسى وآلم لها مما تكون طيلة انزوائى فى مكتبى ، وهذا

ما لجأت إليه وأمنت في إطلته يوماً بعد يوم حتى صار عادة مألوفاً عندي .

ولما ورد الخريف ، اعتدت أيضاً على الذهاب إلى بيت الأنسة « دى لا . م » لتناول الشاي حيث أوتر قضاء الفراغ ، كلما سمحت أعمالي وزياراتي ، أى كلما استطعت العودة مبكراً . وقد شجعتني على ذلك قصر النهار وسرعة انقضاء الليل .

لم أقل بعدُ إن الأنسة « لويز » أضافت مع « چرتود » ثلاث فتيات فاقدات البصر نزولاً على رأى الطيب « مارتان » . وفرضت « چرتود » على نفسها بدورها أن تعلمهن القراءة وبعض أعمال منزلية مختلفة هينة ، فلم يلبث أن أظهرن إتقاناً ومهارة .

أية راحة وأى عزاء واتعاش كنت أشعر به كلما حظيت بجو « الهزى » (اسم بيت الأنسة) الدافئ ، ولشد ما كان يشق على الحرمان حين كنت أضطر في بعض الأحيان إلى التغييب عنه يومين أو ثلاثة !

ويسعدنى القول أن الأنسة « لويز » تشرف على شؤون « چرتود » والفتيات الثلاث دون أن تضيق بهن أو تتأفف ، يساعدها في العمل ثلاث خاديات مخلصات يجنبنها التعب . وهل في وسع إنسان أن يسفه الثروة والفراغ في محابتهما لهذه الأنسة ، وهى أجدر الناس بهما ؟ إنها تحبس كل وقتها وعنايتها على الفقراء

والمساكين ، ولها نفس عاصرة بأعمق الورع والإيمان ، وكأني بهما لم
تخلق إلا لأعمال البر في الأرض والعيش فيها خالصة للمطف
والحبة . وعلى الرغم من شعرها الذي خالطه البياض والمغطى دائماً
بطافية من المخرم الأبيض ، فإن ابتسامها وديعة بريئة كالطفل بل
هي أكثر ، وحركتها متزنة منسجمة فوق ما يطمح إليه البصر ،
وصوتها شجي رخم كأعذب ما تنوق إليه الأذن من الإيقاع
والألحان . وقد أخذت عنها « جرترود » أعماطها وأسلوبها في
الحديث وقلدتها بعض التقليد في صوتها وطريقة تفكيرها ، بل في
كل شيء عامة — وإنى أتهيج بهذه المشابهة بينهما التي لم تلق كلتاهما
بالها إليها . وأى انشراح يملأ نفسى حين كنت أجد فسحة من
الوقت أطول من المعتاد لأقضيها معهما وأمتع النظر بمرآها
جالستين جنباً إلى جنب و « جرترود » متكئة بجبينها على كتف
صديقتها أو ممسكة يديها في رضا واطمئنان ، وهما تصفیان إلى
ما أقرأ من شعر « هوجو » أو « لامارتين » ! ما كان أعذب
عندى أن أتأمل في نفسيهما الصافيتين انعكاس هذا الشعر ! حتى
الفتيات الصغيرات كن يتأثرن به إلى حد كبير !

كان نحو هؤلاء الفتيات وتقدمهن أخاذاً في هذا الجو الذي
يشع الدعة والمحبة . ولقد انفرجت شفتاى عن بسمة حين أخبرتنى
الآنسة « لوز » أنها تنتوى تعليمهن الرقص حرصاً على صحتهم من

ناحية ، ولتدخل على قفوسهن الفضة مفاتن المسرة من ناحية أخرى ولكن اليوم أعجب أشد الإعجاب بلطف حركاتهن الموزونة التي استطعن أن يُحْدِثْنَها وعجزن واحسرتاه عن أن يقدرن قيمتها ! ومع هذا أقنعتني الآنسة « لوزير » بأن هذه الحركات التي لا يستطيعن رؤيتها ، يدركن انسجامها من الوجهة العضلية .

كانت « چرتروود » تشاركهن هذا الرقص مغتبطة مولعة في خفة وظرف . وكانت « لوزير » تجامل الفتيات في لهوهن هذا وتنزل عن العزف « لچرتروود » في بعض الأحيان ، وقد خطت في فن الموسيقى خطوات تبعث على الدهش الشديد . وهي الآن توقع على أرغن الكنيسة أيام الآحاد وتمهد للأناشيد الدينية بنغمات قصيرة مبتكرة .

وفي يوم الأحد من كل أسبوع كانت تأتي لتناول طعام الغداء عندنا ، فيستقبلها أبنائي بالفرح والابتهاج برغم اختلاف ذوقهم عنها وازدياد هذا الخلاف شيئاً بعد شيء . ومن حسن الطالع أن « أميلي » كانت تملك نفسها وأعصابها ولا تبدى كثيراً من العنيق والهياج ففتننى الوجبة في خير وسلام . فإذا غادرنا المائدة قصبدا جميعاً إلى « المُرْمَى » مع « چرتروود » . وكان أولادى ينتهجون كأنهم في عيد حين يذهبون إلى بيت « لوزير » حيث تغمرهم بالمطف وتقدم إليهم ألواناً من الفطائر والجلوى . واصلأتى نفسها كانت تتأثر بكرم

الآنسة وبشاشتها فتتفرج أسارير وجهها وتبدو في نظرة من الشباب قشيب .

وفي كل مرة كنت أعتقد أنها لن تصدف عن هذا التحوير في مجرى حياتها الملل الثقيل إلا في جهد ومشقة ...

١٨ مايو .

ذهب القر والجليد معه ، ورجع الصبحو والدفء والأيام الممتعة ، فاستطعت أن أعود إلى الخروج مع « چرتروود » بعد العجز عنه وقتاً طويلاً (إذ كان الثلج قد تساقط مرّة أخرى وبقيت الطرق إلى الأيام الأخيرة في حال سيئة) كما لم أجتمع بها على أفراد منذ زمن بعيد .

خرجنا ذات يوم ، وكان الهواء يلون خديها فيكسبهما حمرة خلافة ويهب على شعرها المسجدي فيتهدل ويسبل على وجهها النضرة وهي لا تفتر عن أن تنجيه عنه . وكنا نسير في محاذاة مطحلة فاقطعت بعض أزهار برية وعقصت بسوقها شعر الفتاة من الخلف تحت قبعتها الصغيرة ليقاوم الهواء ويتجنب التشعث .

وإنا لني طريقنا والمجبب يصحبنا لعودتنا إلى الاجتماع والمخلوة ، ولم تتبادل إلا بعض كلمات طائشة الغرض ، إذا هي تدير إلى وجهها وتسألني على حين بغتة :

— أتعقد أن چاك مقيم على حبه ؟
فأجبت فى الحال :

— لقد اعتزم النزول عن حبه والعدول عنك .
— ولكن أتعنه يعرف أنك تحبىنى ؟

مضى على الحديث الذى جرى بيننا ورويته فى حينه زهاء ستة أشهر لم تنطق فى أثناءها (وهذا ما يدهشنى) بكلمة تمس الحب من قريب أو من بعيد ، لأننا لم نكن نجتمع فى خلوة كما ذكرت . . . ما كان أسمعنا لو سارت الحالة على هذا المنوال ! . . . باغتنى سؤالها وخفق فؤادى خفقاناً شديداً ، فاضطرت إلى التمكنث فى المسير .
ولما تمالكـت روعى قليلا ، قلت فى صوت مرتفع :

— الناس جميعاً يا « چرترود » يعلمون أنى أحبك .

لم يقنعهما كلامى فقالت :

— كلا ، كلا : إنك لا تجيب على سؤالى .

سكنت قليلا ثم عادت تقول وقد نكست رأسها :

— خالى « أميلى » تعرف هذا ، ويقينى أن هذه المعرفة ترمض

نفسها بالحزن وتقض مضجعها بالألم .

فاحتجبت فى صوت ينم عن الاضطراب وضعف الثقة :

— إنها تحزن لتغير سبب . وهذا طبعها الذى فطرت عليه .

فأجابت فى لهجة تدل على ضيق الصدر ونفاد الصبر :

— أوه ! إنك تحاول دائماً أن تطمئنى ، ولكنى لا أهتم بهذه
الطمأنينة . أعرف أنك تخفى عن إدراكى أشياء كثيرة خشية أن
تقلق نفسى أو تؤلمها ... تدعنى أجهل أشياء كثيرة حتى أنى فى
بعض الأحيان ...

وكانت وهى تتكلم يخفض صوتها تدريجاً ، ثم توقفت كأنما
قد استنفدت كل قوتها . ولما كررتُ جملتها الأخيرة فى صيغة
السؤال :

— فى بعض الأحيان ؟

قالت فى نعمة الحسرة والاكتئاب :

— أتصور أن السعادة التى أدين بها لك قائمة على الجهل ليس غير .
— ولكن يا « جرتروود » ...

— دعنى أتكلم : إنى لا أريد سعادة مثل هذه . ثقب بأتى ...
بأنه لا يهمنى أن أكون سعيدة . أفضل عندى أن أعرف ...
فى الحياة أشياء كثيرة ، وحزينة حقاً لا أستطيع أن أراها ، ولكن
لا يجوز لك أن تكتمنى أمرها وتركنى أجهل حقيقتها . لقد أدمنت
التفكير طوال أشهر الشتاء ، وأخشى أن يكون العالم بأكله أقل
جمالاً ، بل على النقيض مما ألقيت فى روعى يا سيدى الراعى .

— فى الحق إن الإنسان قد شوه العالم فى كثير من الأوقات .
نطقتُ بهذه الألفاظ فى خوف ، لأن توثب أفكارها أفرغنى

ونال من جلدى ، فحاولت أن أصرف ذهنها عما يعكر صفاءه وأنا
يأس من النجاح فيما أقصد إليه . وخيل إلى أنها كانت تنتظر هذه
الكلمات القلائل ، لأنها تلتقيتها على الفور كأنها حلقة اتصال بين
طرفي سلسلة ، وصاحت قائلة :

— هذا هو عين ما أرومه : أود لو أننا كدأنى لا أضيف شيئاً
إلى ما هو كائن .

واصلنا المسير فى خطى سريعة وقتاً طويلاً من غير أن ننبس
بمنت شفة . وكل ما كان فى مقدورى أن أقوله ، كان يصطدم مقدماً
بما كنت أحس أنه يحول يخطر ها . وخفت أن يصدر عنى جملة
قد يتوقف عليها مصيرنا ، فأثرت السكوت . وفى هذه الحالة
تذكرت «مارتان» وقوله إن من الجائز المؤمل أن تبصر «چرتروود» ،
فامتلا صدرى بانقباض أليم .
وبينا أنا مستغرق فى صمتى مشترك الخاطر مأخوذ اللب ،
إذا بها تقول :

— أريد أن أسألك — ولكنى لأدري كيف أصيغ السؤال ...
كانت تستصرخ من غير شك كل شجاعتها ، كما كنت أفعل
لأقوى على الإصغاء إليها . ولكن كيف كنت أستطيع إدراك
السؤال الذى يعذب نفسها قبل أن تنطق به ؟
عادت إلى تكملة حديثها :

- هل أولاد الضريرة لا بد أن يولدوا عمياً ؟
لست أدري أينما كان أشد ألكا من هذا الحديث ، ولكننا
وقد بلغنا هذه المرحلة ، كنا مضطرين إلى الاستمرار فيه فقلت :
— كلا يا « جرتروود » ، إلا في حالات خاصة نادرة ، وفضلاً
عن ذلك ، فليس من سبب ألبتة لأن يولدوا كما ذكرت .
بدأت على وجهها أمارات الاطمئنان ، وكنت أرجو بدورى
أن أسألها لماذا تطلب هذا الإيضاح ، ولكنى لم أجد من نفسى
الشجاعة ، فتأملت قولى فى نرق :
— تعلمين يا « جرتروود » أن الإنسان لكى يعقب ، ينبغى أن
يكون متزوجاً .
— لا تقل هذا يا سيدى الراعى . أعلم أنه غير صحيح .
فاحتجبت قائلاً :
— قلت لك ما يأمر به التوقر والاحتشام ، أما فى الواقع فإن
قوانين الطبيعة تبيح ما تحرمه قوانين البشر وأحكام الله .
— قلت لى مراراً أن شرائع الله هى شرائع الحب نفسها .
— إن الحب الذى يتكلم هنا لم يعد ما يُعبر عنه بقولة :
الإحسان أو البر أو محبة الله .
— وهل تمنحنى بدافع الإحسان ؟
— كلا يا « جرتروود » كما تعلمين جيداً .

— إذن تعترف بأن حبننا يخالف أحكام الله ؟

— ما الغرض الذى ترمين إليه ؟

— أوه ! تعرفه جد المعرفة ، وليس من شأنى أن أفصح عنه .

عبيثاً حاولت المراوغة والهرب من هذا الموضوع الشائك ،
وسمعت الى قلبي يدق معلناً تراجع حججى فى هزيمة منكرة ،
فصحت فى حيرة الوله :

— جرتود ، ... أترين أن « حبك » خاطئ ؟

فقومتُ قولى وعدلته :

— إن « حبننا » ... أقول لنفسى : كان على أن أراه كذلك

حين بزغ فجره .

— وإذن ؟ ...

فاجأت فى صوتى وأنا أنطق بهذه الكلمة ، ما يشبه التوسل

والضراعة ، بينما أكلت هى قولها بلا توقف .

— ولكنى لا أستطيع الكف عن أن أحبك .

كل هذا وقع بالأمس ، وقد ترددت فى تدوينه بمض
التردد ... لم أعد أدرى كيف انتهت استراضتنا ... سرنا فى
خطوات سرية كأننا كنا نروم الفرار ، وذراعها تحت إبطى
أضغظ عليه ضغطاً شديداً . وخيل إلى أننا ، وقد فارقت نفسى

الجسم الذى يحتويها ، سنسقط على الأرض إذا عثرت أقدامنا بحجر
مهما يكن صغيراً لا يكاد يُنَال بلحظ البصر .

١٩ مايو .

عاد إلى « مارتان » يشرنى بأن « جرتود » ستبصر دون
ريب ، وأخبرنى أن الطبيب « رو » يؤكد نجاح العملية ويطلب
استبقاء الفتاة عنده بعض الوقت .

لم يكن لى أن أعترض ، ومع هذا ملكنى الجبن فسأله أن
يستهلنى زمناً قصيراً للتفكير والتروى ، وأن يدعى أعد نفس
الفتاة فى أناة وهدهد . . . كان من المفروض أن يصفق قلبى ابتهاجاً ،
ولكنى شعرت به يثقل فى دخيلتى ويرزح تحت عبء مستبهم من
النم يستمضى على البيان . . . كان على أن أعلن إلى « جرتود »
الأمل فى رد البصر إليها ، وفكرة هذا الواجب وحدها أنشأت
فى صدرى التخاذل والخور .

١٩ مايو ليلاً .

رأيت « جرتود » ولم أتحدث إليها فى شىء . وفى هذا المساء
ذهبت إلى « الهزرى » ولما لم أجد أحداً فى الثوى ، صعدت إلى
غرفة الفتاة فجلسنا على انفراد .

جلست خذوتها وضممتها إلى طويلا فلم تبد منها أقل حركة
تدل على التمتع والرغبة في الابتعاد عني ، ثم رفعت وجهها إلى ،
فتقابلت الشفافة ...

٢٦ مايو

أمن أجلنا يا رب جعلت الليل شديد العمق رائع الجمال ؟ أمن
أجلى يا فاطر السموات والأرض ؟ ... الهواء دافئ ونور القمر
يتهادى إلى من النافذة ويفر في بفيض من السحر ، وأذني تنصت
إلى سيكون السماء الهائل وضممتها الرهيب . لشد ما تذيب قلبي
نشوة روحية صامتة في عبادة مضطربة مختلطة للكائنات جميعا .
لم أعد أستطيع الصلاة إلا في كلف وتوجد ... رب إن كان للحب
حد ، فهو ليس من وضعك ، وإنما هو من وضع أبناء آدم . ومهما
يظهر حي آثما في أعين الناس ، فألهمني الإيمان بأنه عندك طاهر نقي !
إنني أحاول أن أسمو بنفسى على فكرة الخطيئة ... إنها تبدولي
بشعة غير محتملة ، ولا أريد على أية حال أن أتحرّف عن المسيح .
كلا ، إنني لا أقبل أن أرتكب الخطيئة بمجي « ليجرود » ، وليس
في مقدوري أن أقتلع هذا الحب من قلبي إلا باقتلاع القلب نفسه ،
ولماذا ؟ لو لم أكن أحبها ، لوجب على ذلك رحمة بها وشفقة .

والعدول عن حبها الآن يكون خيانة لنا : إنها في حاجة شديدة إلى حيي .

رب ، إني لم أعد أعرف ... لم أعد أعرف غير ذاتك العلية .
أنر طريقى يا أرحم الراحمين واهدنى سواء السبيل ! في بعض الأحيان
يختل إلى أئى أغوص في الظلمات وأتعمق في طبقات منها بعضها
فوق بعض ... إن البصر الذى سيرد إلى الفتاة ، قد زال عن عيني
وانطقاً نوره !

دخلت « جرتروود » بالأمس مصحة الطبيب « رو » بـ « لوزان »
وستبقى فيها عشرين يوماً . وإني أنتظر أوتبها في قلق وجزع بالنين .
سيصحبها « مارتان » في عودتها كما اتفقنا ، وقد أخذت منى
وعداً قبل سفرها أن لا أحاول رؤيتها في أثناء علاجها .

٢٢ مايو

جاءنى خطاب من « مارتان » يبشرنى فيه بنجاح العملية ، فلك
أجزل الحمد يا رب !

٢٤ مايو .

تبليبل بالى وتسلسط على ضيقاً لا يحتمل ، فكرة واحدة : إنه

لا مفر من وقوع نظرها على ، وهى التى أحببته إلى ذلك الحين
دون أن ترائى !

هل ستعرفنى يا ترى ولا تنكر منى شيئاً ؟ للمرة الأولى فى
حياتى ساءلت المرايا فى لهفة وهلع وألحقت فى استنطاقها ! ماذا
عسى أن يكون مصيرى إذا شعرت بأن نظرها أقل تسامحاً مما كان
قلبها وأضعف حباً لى وحدباً على ؟ رحمتك اللهم ! يتمثل لنفسى
أحياناً أنى فى حاجة إلى حبها لكى أحبك !

٢٧ مايو

خفف من غلواء جزعى فى هذه الأيام الأخيرة عمل كثير
مرهق . وإنى أعد كل مشغلة تستطيع انتشالى من نفسى مقدسة
مباركة ، ولكن صورة « جرتروود » تتبغى خلال كل شىء فى
كل حين .

غداً هو اليوم المحدد لعودتها إلينا . ولم تظهر لى « أميل » أثناء
هذا الأسبوع إلا خير النواحي من مزاجها وكأنى بها قد طاهبت
نفسها على أن تنسينى الفتاة الغائبة ، وأن تستمد وأولادها للاحتفال
يقدمها .

٢٨ مايو

جمع « جاسبار » و « شارلوت » ما وجدا من الأزهار في
الغابات والمروج والمراعي ، وافتننت « روزالى » المجوز فى صنع
فطيرة مثالية هائلة جمّلتها « سارة » بالورق الذهبى وأنواع أخرى
من الزينة مختلفة الألوان والصور .

نتنظر وصولها ظهر اليوم . وإني أكتب لأقطع الوقت
وأعتمى على نفسى ألم الانتظار . الساعة الآن الحادية عشرة صباحا .
وفى كل لحظة أرفع رأسى وأطلق بصرى إلى الطريق المعين الذى
ستسلكه مركبة « مارتان » . وقد كبت فى صدرى الرغبة الملحة فى
الخروج لقا بلتهما ، لأننى رأيت خيرا لى وحرصا على شعور « أميلى »
أن لا أسبقها إلى هذا الاستقبال وأنفرد به قبلها .
قلبي يقفز فى صدرى ويكاد ينطلق ... آه ! لقد حضرا !

٢٨ مايو مساء .

فى أية ظلمة بشعة أسبح وأنفوس الرحمة يارب ! الرحمة ! إني
أعدل عن حبها ، ولكن أنت يا خالق الكون ... أضرع إليك أن
تحفظها من الموت !

لشد ما كنت على حق فيما اتبأنى من الخوف ! ماذا فعلت ؟

ماذا كان في نيتها أن تفعل ؟ أخبرتنى امرأتى و « سارة » أنها
أبلغاها باب « الهزرى » حيث كانت صاحبة الآنسة « دى لا م . »
في انتظارها . لقد أرادت إذن أن تخرج ثانية ... ماذا جرى ؟
كم أحاول أن أهدئ من روعى وأدخل بعض النظام على
أفكارى ، لأن الروايات التى تصل إلى سمى إما مستغلة أو متناقضة ،
وكل شىء يختلط فى رأسى ... بستانى الآنسة « لويز » عاد بها إلى
« الهزرى » منذ قليل فاقدة الحس ، ويقول إنه رآها تسير على شاطئ
النهر ثم اجتازت جسر الحديقة وانحنى على صفحة الماء ، ثم
اختفت ، ولكنه لم يدرك حينئذ أنها سقطت فى اليم فلم يسرع إلى
إنقاذها كما كان ينبغى ، ووجدتها آخر الأمر على مقربة من السد
الصغير حيث حملها تيار الماء .

حين رأيته بعد ذلك بقليل ، لم تكن قد استفاقت ، أو على
الراجح فقدت الوعى ثانية . وبعد لحظات عادت إلى نفسها بفضل
ماوجه إليها من العناية السريعة . ومن حسن الحظ أن « مارتان »
كان لا يزال معنا ، ولكنه فسر هذا النوع من الدهول أو الخمول
الذى اعتبرها تفسيراً ناقصاً غير مقنع . وعيناً سألها واستدرجها ،
وكأنى بها لم تسمع شيئاً أو اعتزمت أن تلزم جانب الصمت ، وظل
نفسها مطروداً مبهوراً لاهثاً حتى خاف عليها « مارتان » احتقان

الرئينين ، فأسعفها بالعلاج الوقتي ووضع على ظهرها المحاجم ثم وعد بالعودة في اليوم التالي .

وكان الخطأ أنها تركت وقتاً طويلاً بلباسها المبللة بماء النهر الشديد البرودة ، إذ كانت الغاية المرجوة أول الأمر إرجاع الرشد إليها . وقد استطاعت الآنسة « دى لا م » أن تحصل منها على بعض كلمات يستدل منها على أنها أرادت أن تجمع شيئاً من أزهار « لا تسنى » التى تنمو بكثرة فى تلك الناحية من النهر ، فزلت قدمها على حين بفتة ، لأنها لم تحسن بعد تقدير المسافات واتزان الخطوات أو ربما ظنت بساط الأزهار الطافى فوق سطح الماء أرضاً صلبة تحتمل قدميها . . . آه ! لو تسنى لى أن أعتقد بصحة هذا التعليل ! لو اقتنعت بأن ما حدث جاء عن طريق القدر لا عن عمد ، لألقيت عن نفسى عبثاً ما أثقله وأبشعته !

جلسنا إلى المائدة ، وكانت الوجبة فرحة على الرغم مما وقع ، ولكن « جرتروود » لم تفارقها بسمة غربية بعثت فى طويتى أقطع ألوان القلق طول الوقت الذى قضيناه فى تناول الطعام . كانت بسمة مقتصبة لم أعدها فيها من قبل ، فحاولت أن أنسبها إلى حالة الإيصار الجديدة التى طرأت عليها لأجنب نفسى مرارة الحقيقة . . . كآنى بهذه البسمة قد جرت من عينيها عبرات على خديها ، فتضائل أمامها ابتهاج الآخرين المبتذل وآلم نفسى جد الألم .

لم تشترك « جرتود » فى الفرح ، وكأنما هى قد استكشفت سرا تود من غير شك لو تكون فى خلوة قسرة إلى ، وبقيت صامته لا تنطق إلا بكلمات قليلة فى فترات متباعدة ، وليس هذا بمستغرب منها لأنها فى غالب الأحيان تفزع إلى السكوت كلما ازداد من فى مجلسها صخباً وثرثرة .

رب ، إنى أضرع إليك أن يجيب سؤلى هذا : أوزعها أن تقضى إلى بذات نفسها . إنى مضطر إلى المعرفة لأستطيع الاستمرار فى الحياة . . . ومع ذلك هل الرغبة الشديدة التى دفعتها إلى الخلاص من العاجلة ، ماتاها على وجه الدقة أنها « عرفت » وحسرت عن عينا حجاب الجهل ؟ وماذا عرفت ؟ أى شىء بشع بإصديقتى وقع فى ذهنك ؟ وأى شىء قاتل أخفيته عنك ، وتسنى لك أن تبصره فجأة ؟ قضيت إلى جانب فراشها زهاء ساعتين ، أرهف السمع لتنفسها المتقطع المضطرب ، وأنقرس فى جبينها ووجنتيها المتقمتين وأجفانها الرقيقة المطبقة على حزن غامض ، وشعرها البلل المنشور من حول رأسها على الوسادة كحزم صغيرة من الأعشاب البحرية . . .

٢٩ مايو

استدعنى الأنسة « لويز » هذا الصباح حين كنت على وشك الذهاب إليها من تلقاء نفسى . وقد عاد الوعى إلى « جرتود » بعد

أن قضت الليل في هدوء يشوبه بعض القلق.. ولما دخلت غرفتها
قابلتني بابتسامة، وأشارت إلى بالدنومنها والجلوس على حافة فراشها.
لم أجزؤ على الاستفسار منها عما يحيش في صدرى، وكانت
دون رب تحشى أسئلتي، لأنها قالت على الفور كأنما أرادت أن
تتلافى أى تفتح للنفس فتلفظ دفعة واحدة ما يفدحها من الخواالج:
— كيف تسمي هذه الأزهار الزرقاء التى أردت أن أجمعها من
شاطئ النهر؟ أتتكرم بعمل طاقة منها، وأنت أكثر منى مهارة
ودربة؟ لو جئتني بها لوضعتها هنا على مقربة من سرىرى...
آلمنى ابتهاج صوتها المتكلف، وأدركت هى ذلك دون شك
إذا قالت فى لهجة جدية:

— لا أستطيع أن أتحدث إليك هذا الصباح لفرط التعب
الذى يستولى على. إذهب واجمع الأزهار إذا سمحت، وأرجو أن
تعود إلى سريىمًا.

رجعت بعد ساعة ومعى طاقة الأزهار المشتهاة، فقابلتني
الآنسة «لويىز» وأخبرتني أن «جىرتروود» نائمة ولا يمكن أن
تستقبلنى قبل المساء، فتركت الأزهار وانصرفت.

رأيتها ثانية هذا المساء، وكانت شبه الجالسة على الفراش،
وظهرها يستند إلى وسائد بعضها فوق بعض، وشعرها مرتب

حول نجينها ، تتخلله زهرات من التي جمعها .
وكانت الحمى تبدو عليها وتستبد بها ، فلما وقفت أمامها
ومددت إليها يدي ، استبقتهما في يديها الملتهبة ، وقالت :
— ينبغي أن أسر إليك اعترافاً ، لأنني أخشى أن أموت الليلة .
لقد كذبتك في هذا الصباح ... لم أكن أحاول اقتطاف أزهار ...
أتصفح عنى إذا قلت إنى أردت إزهاق روحي ؟
خررت جاثياً على ركبتى عند حافة السرير ، ويدي ممسكة بيدها
الضعيفة المعروفة ، ولكنها جذبتها في رفق وشرعت تمسح بها على
جيني ، على حين كنت أدفع وجهي في طيات غطاها لأخفي عنها
دموعي وأكبت تهادني .

عادت تقول في رقة نامية .

— أتعجب أن هذا شر عظيم ؟

عيت عن الجواب ، فقالت :

— ترى جيداً يا صديقي أنى أشغل من قلبك وفي حياتك مكاناً
فوق ما ينبغي . أدركت هذه الحقيقة عقب رجوعي إليكم ، أو فهمت
على الأقل أن المكان الذي أشغله ملك لامرأة أخرى يحزنها ويدي
قلبا اعتداني عليه واغتصابي إياه . وجريعتي أنى لم أشعر بهذا مبكراً
وفي الوقت الملائم ، أو على الأقل — وقد عرفت ذلك الآن — أنى
تركك تمنيني على الرغم من كل الظروف . ولكن لما تجلى لى

وجيها بغتة ورأيت سحابة الحزن العميق تتدجى فيه ، أرمضتني
بالألم هذه الفكرة : أن حزنها من صنعى ونسج يدي ، فلم أعد
أحتمل عبثها القاتل . . . لست مخطئاً ولا ملوماً ، ولكن دعني
أفسح لها المكان وردّ عليها الطمأنينة والفرح .

توقفت يدها عن ملاطفة جيئني ، فأمسكتُ بها وغمرتها
باللثامات والعبرات ، ولكنها جذبتها في حركة تدل على ضيق الصدر
وظفق يهي على قلبها سيل حزن جديد ، فقالت :

— ليس هذا ما أردت أن أقوله ، وليس هذا ما أريد أن أقول .
كررت الجملة الأولى ثم سكنت ، ورأيت العرق يتصبب من
جبينها . وبعد لحظات أغمضت عينها وبقيت على هذه الحال بعض
الوقت كأنما اعتزمت أن تستجمع أفكارها أو توهم نفسها بأنها مادت
سيرتها الأولى من ظلمة العين . فلما تم لها ما أرادت ، قالت بصوت
كسير حزين وهي تفتح عينها ، ولم يلبث أن قوى وارتفع حتى
صار حاداً شديداً :

— لما رددت على البصر ، فتحت عيني على عالم أجمل مما
استطعت أن أتوهمه في تأملي وخيالي . نعم في الحق لم أتصور التهار
والجو والسماء في مثل هذا النور والصفاء والاتساع ، وكذلك لم
يبد بحلدي قط أن جبين البشر يحمل هوماً إلى مثل هذه الدرجة .
وحينما ابت من سفرى ودخلت عليكم ، أتدري أى شيء ظهر لي

لأول وهلة ؟ ... آه ! مهما يكن من شيء ، فإنني مضطرة إلى الجهر لك : لم أر عند دخولي إلا خطانا ، بل خطيئتنا ... لا محتج ... تذكر قول المسيح « لو كنتم صميا ، لما كان لكم خطايا مطلقا » ... الآن أرى حكمة هذه الآية وأدرك مغزاها ... إنهض أيها الراعي واجلس هنا على مقربة مني ، ثم اصغ إلى ولا تقاطعني . قرأت أثناء إقامتي عند الطبيب - أو قرئ لي على الراجح - قطعاً من التوراة كنت أجهلها ولم تقرأها أنت لي قط . وإني لأذكر آية لبولص الرسول كررتها لنفسى يوماً كاملاً ، وهي « أما أنا ، وكنت في الزمن السالف بلا قانون ، فقد عشت . ولكن لما جاءت الوصية ، انتعشت الخطيئة وزارتني المنية » .

كانت تتكلم في تمجيد بالغ وبصوت مرتفع يكاد يبلغ حد الصراخ حين نطقت بالكلمات الأخيرة ، حتى خشيت أن يصل إلى سمع الجالسين خارج العرفة .

ثم عادت فأغمضت عينيها وكررت هذه الجملة في صوت خافت كأنما تحدث نفسها : « انتعشت الخطيئة - وزارتني المنية » .

استقلتني رجفة ، وانقض على قلبي نوع من الرعب كاد يوقف دقاته . ومع هذا أردت أن أصرف ذهنها عن فكرة الموت ، فقلت :

- من ذا الذي قرأ لك هذه الآيات ؟

فأجابت وهي تفتح عينيها وتحدق في وجهي :

- تلاها على « جاك » . . . ألا تعرف أنه صدف عن المذهب
البروتستانتي واعتنق المذهب الكاثوليكي ؟
شق على هذا الخبر ، وكنت على وشك أن أسألها الصمت في
رجاء وضراعة ، ولكنها استمرت في قولها :
- إنى أسبب لك ألماً كثيراً يا صديقي ، ولكن ينبغي أن
لا يقوم بيني وبينك ظل من الكذب . لما رأيت « جاك » ،
أدركت فجأة أنه لم يكن أنت الشخص الذي أحبه ، بل كان إياه .
له وجه كوجهك تماماً ، أريد أن أقول إن له وجهاً يماثل وجهك
الذي تصوره . . . آه ! لماذا أوعزت إلي أن أرفض عواطفه وأرد
حبه ؟ كان في وسمى أن آتخذه حليلاً . . .
فصحت قائلاً في يأس :

- لا يزال في وسعك إتمام هذا الزواج .

فأجابت في حدة :

- لقد ترهَّب .

ثم صعدت أعرق التهديدات . ولما هدا يعض ما بها ، غنممت

قائلة في ذهول روحى :

- آه ! أود لو أعترف له . ترى جيداً ياسيدى الراعى أنى على

قاب خطوات من الموت . أشعر بظماً شديد ، ففضل واستدع

أى إنسان . إنى أختق . . . دعنى وحدى . . . آه ! كنت أرجو

أن أجده متلمساً من العزاء في التحدث إليك على هذه الصورة .
أتركني ، أتركني . لم أعد أحتمل رؤيتك .
غادرتُ الغرفة وناديتُ الآنسة « دى لا . م » لتحل محلي .
وكان انفعالها الشديد يخيفني وينذرني بأسوأ العواقب ، ولكنني
أذعنت لأمرها بعد إقناع نفسي خشية أن يزددها بقاءى سوءا ،
ورجوت من ربة الدار أن تحظرني إذا تفاقمت حالتها .

٣٠ مايو

وا أسفاه ! كُتِبَ عَلَى أَن لا أراها بعد ذلك إلا مسجاة
في الفراش . إنها استوفت أنفاسها عند طلوع النهار هذا الصباح
بعد أن قضت ليلة في الهذيان والآلام المبرحة . وقد أرسلت الآنسة
« لويز » برقية إلى « چاك » لإنفاذاً لرغبة « چرترود » الأخيرة ، تدله
على رداة الحالة ، فلم يستطع أن يصل إلا بعد موتها ببضع ساعات .
ولما تقابلنا وجهه إلى أعنف اللوم لأنني لم أستدع للفتاة قسيساً قبل
قوات الوقت . ولكن كيف كنت أفعل ذلك ، ولا أزال أجهل
أنها اعتنقت المذهب الكاثوليكي أثناء إقامتها « بلوزان » سيراً على
حكمه دون ريب ؟ ! ثم أعلن إلى في وقت واحد وضربة واحدة
اعتناقه وإياها هذا المذهب الديني وكذلك فارقني هذان
المخلوقان ، وكأني بهما وقد كنت سبب التفرقة بينهما في الحياة ، قد

دبرا خطة الحرب منى ليتحدا في الله على استواء . ولكنى فهمت
واقننت بأن انقلاب « چاك » الدينى يرجع إلى التعقل والروية
أكثر مما يرجع إلى الحب ، لأنه قال لى :
— أبى ، ليس من اللأثم أن أتهمك ، ولكن مثل خطئك
هو الذى أرشدنى وهدانى .

لما سافر « چاك » ، ركمتُ على مقربة من « أمبلى » وسألته أن
تعلى من أجلى ؛ لأننى كنت فى حاجة إلى المراء والمعونة ، فقالت
فقط هذه الصلاة « يا أبانا الذى فى السماء » وهى تفصل بين
كل آية وأخرى بصمت طويل يشغله ابتهالنا وضراعتنا .
لشد ما كنت أود لو تسحّ جفونى ، ولكنى شعرت بقلبي
أكثر جذباً من الصحراء

بعض كتب الأستاذ عيسى صادق

١ - نظرات تاريخية دستورية

٢ - القصص

٣ - أدولف

٤ - الحب والديسية

12
8

HIGHOTEC ARCHIVE 1111



0491489